رواية

ابن سارة

محمد سعيد الضنحانى

دار المحيط للنشر
Al Muheet publishing

ابن سارة

رواية

تأليف وأشعار

محمد سعيد الضنحاني

ابن سارة «رواية»
تأليف: محمد سعيد الضنحاني
أشعار الرواية: محمد سعيد الضنحاني
موافقة مجلس الامارات للاعلام: M C -1922972-01-01
التصنيف العمري: E

دار المحيط للنشر
Al Muheet publishing

2024

الفصل الأول

-1-

بيوت قرية أم الطيور الساحلية المتلاصقة بشكل متعرج، كانت امتداداً لموج البحر. تلك الثلاثية العجيبة التي جمعت الشاطئ والجبل والسهل، أثرت بشكل بالغ على أهالي القرية حين حولت منطقتهم إلى جسر يربط العديد من القرى المجاورة مع بعضها، وهو ما انعكس ثراءً في القصص والأحداث التي تُفرد يومياً على طاولة مجلس القرية المنعقد بحضور وجهائها من كبار السن، والرجال الذين عجنتهم الحياة وصقلتهم التجارب حتى باتوا أشداء في الحكمة، بسيطين في التعامل، وغير متهاونين مع المثالب.

رغم الموارد المحدودة، والحياة البسيطة للناس، إلا أن موقع أم الطيور جعلها تزخر بالقصص وحكايا العابرين من المناطق المجاورة، التي تعدّ هذه القرية معبراً لها. هكذا ظهرت المفارقات الغريبة في أغاني الصيّادين العائدين من البحر آخر النهار، أو حداء الفلاحين

وهم يستظلون تحت النخيل بعد عمل شاق في الأرض. إلى درجة أن الأهالي كانوا يشمون رائحة التفاؤل أو الشؤم، منذ اللحظة التي ترسو فيها المراكب، ثم يدلف منها الرجال مع شباكهم وسلالهم باتجاه الطريق نحو القرية، فالأمهات استطعن دائماً معرفة أحوال أبنائهن من الأغاني التراثية التي ترافق الصيادين إلى وسط الساحة العامة بين البيوت. ألحان الأغنيات وكلماتها كانت تشي بما تحمله السلال من خير أو خذلان. أما إذا تداخلت أصوات الفلاحين في المزارع المجاورة مع أصوات الصيادين وارتفعت حدة الجلبة على الطريق، فالأمهات يتأكدن أن خطباً ما قد حصل، ومن المرجح أن يبدأن بالنحيب لأن ذلك من علامات وجود أحد الغرقى أو المصابين. النساء كنّ يسمعن صوت الفجيعة التي تصل إليهن من بعيد مع الهواء الرقيق. هذا ما حصل بالفعل مع العديد من الأمهات عندما أصبن بالهلع وشرعن بالعويل منذ اللحظة التي لامس آذانهنّ صوت غناء الصيادين الحزين.

شكلت قصص القرية والمناطق المجاورة مادة دسمة على مائدة رواد مجلس القرية. فأولئك الرجال العتيقون الذين يجتمعون يومياً، خبروا الحياة وخاضوا معها مواجهات حاسمة، ولم تكن الهزيمة والظروف القاسية تزيدهم إلا صلابة وحكمة، والنصرُ يجعلهم أكثر تواضعاً. أناس عركتهم الصعوبات ولوحتهم الشمس القاسية وأصبحت طينتهم نادرة كما يصفهم الشبان الذين يحضرون تلك المجالس بهدف الاستماع

للمغامرات وتاريخ القرية التي شيدها أولئك بالصبر والتعاون والعمل الدؤوب. احتلت قصص السيل الكبير الذي ضرب القرية، وسنة الضبعة تحديدا التي راح ضحيتها العديد من صيادي القرية، حيزاً كبيراً من تلك الاجتماعات الأهلية، فما إن يُفتح الحديث حتى يشرع من شهد تلك الواقعة يدلو بدلوه، فيتأكد المستمعون أن آباءهم جمعتهم المخاطر ونحتتهم القسوة فصاروا أكثر بساطة وفهماً للحياة. الجميع يتذكر أولئك الأبطال الذين ضحوا بأنفسهم لإنقاذ الأطفال بعد أن دخلت مياه السيل إلى المنازل. أجيال كاملة كبرت وهي تتوجس من الفيضانات والعواصف البحرية، منذ اللحظة التي تتلبد فيها الغيوم من ناحية الغرب وتبدأ بالتحرك مع الريح الرطبة نحو السهل والوادي الكبير الذي تنتشر فيه بيوت القرية، يبدأ كبار السن بتحذير الناس بضرورة الاستعداد لمواجهة بحر آخر قد يفاجئهم إثر المطر الغزير المتوقع.

ولكم استرسل البعض في سرد بطولاتهم أثناء مواجهة الحيوانات المفترسة أمام المجتمعين في المجلس، وهو ما أدى إلى ظهور عدد من الظرفاء الذين يزينون القرية بحكاياتهم الطريفة، كأن يتحدث أحدهم عن تتبع الضبع له ليلة البارحة من مكان انعقاد المجلس إلى البيت، ومواجهته له بضوء الفانوس كلما حاول الاقتراب والانقضاض عليه. وقد يصل الأمر لأن يقول آخر إنه خاض عراكاً طويلاً مع ذئب فاجأه داخل المزرعة، لكنه أثخنه بالجراح مستخدماً خنجره الحاد قبل

أن يولي الادبار هارباً باتجاه الجرد القريب. الحكايات شدّت من أزر الناس وجعلتهم متعاضدين أمام الخطر، مثلما هو الحال عند اجتماعهم في الأفراح والمناسبات الاجتماعية التي تحصل في القرية. كانوا يتقاسمون الخطر مع الفرح والحزن بشكل عادل فيما بينهم، أما المقتدرون من أهل القرية، فلم يبخلوا في مدّ يد العون لمن جارت عليه الأيام أو نالت منه الكوارث، فتراهم يهرعون للوقوف بحزم إلى جانبه حتى لا يواجه الصعوبات وحيداً.

من عادة تجار القرية، أن يعودوا بالأخبار والقصص الغريبة بعد زيارتهم للمدينة والقرى المجاورة. حتى يخيل للجميع أن أولئك التجار يشترون الحكايا مع البضاعة التي يبتاعونها لمحلاتهم، وقد تندّر بعضهم بالقول إنه لن يقصّ على المجتمعين في المجلس آخر الأحداث الطازجة والمثيرة إلا بعد أن يدفعوا ثمنها أسوة بالحاجيات التي يشترونها لمنازلهم مثل المأكل والمشرب. تمكنت القصص من جعل أهل القرية أكثر تجانساً واستسلاماً لتوحيد مخيلاتهم ومواقفهم تجاه ما يجري في المحيط. ذلك المجتمع الصغير والبسيط كان بحاجة إلى التراص من دون تخطيط مسبق، وهذا ما نجحت بفعله الحكايات المتناقلة بين أبناء القرية. لكن رغم ذلك لم تنجُ القرية من النتوءات الشاذة التي تسببت بكوارث جمة على بعض أهلها ممن عانوا من الغدر أو تعرضوا لفقدان الأقرباء والثروة بعد سنوات من العيش الرغيد وهناء البال.

تمكنت قرية الساحل، من اختزال المجتمع المحيط في المناطق الأخرى، نظراً لموقعها الجغرافي المميز واحتكاكها الدائم بجميع المناطق. كانت بمثابة القدْر الكبير الذي تتفاعل فيه الأسباب والنتائج رغم صغرها. أولئك الناس ظهروا شبيهين بأشجار النخيل المشغولة دائماً بالارتقاء للأعلى، رغم شحّ الماء وفقر التراب وقسوة الطقس. كان مشهد اندهاش الشباب لسماع القصص وإصغائهم بتركيز لحكايا ألف ليلة وليلة أو أشعار أبي نواس وقصص عنترة بن شداد العبسي، يجعل الرجال يستفيضون بالحديث فتنفتح قريحتهم أمام النشء الجديد التائق لصناعة قصصه الخاصة التي سينقلها لاحقاً لشبانٍ جدد في المجلس كي يحصل على ذات الدهشة والتسمّر عند الاستماع.

لقد وعدهم أبو راشد، باعتباره من الشخصيات البارزة في مجلس القرية، أن يأتيهم بكتب تحكي قصص الشعراء والأساطير القديمة، حتى يبنوا ثقافتهم بشكل صحيح، وكثيراً ما عاد من المدينة بعد رحلاته التجارية المتكررة، وهو يحمل هذا النوع من الهدايا لأولئك الشبان المسحورين بالقصص والحالمين دائماً بالانتقال من مرحلة التلقي إلى الإلقاء. لم يتصور أصحاب الأعواد الغضة، أن قصص الرجال الملوحين بأشعة الشمس، تخفي وراءها حكايات أكثر تشويقاً ودهشة تتعلق بحياتهم الشخصية وما يكابدونه في همومهم العائلية أو سواها. لكن

الرصانة والهدوء مع الابتسامات الصفراء أثناء الحديث، كانت تؤكد وجود قصص مسكوتٍ عنها ولا يمكن روايتها أمام الملأ.

-2-

استطاع أبو راشد أن ينال مكانة كبيرة عند أهالي القرية. فذلك الرجل الخمسيني، شهد أحداث السيل الكبير وسنة الضبعة عندما كان يافعاً، واستطاع بجرأته وخبرته في مصارعة أمواج البحر والغوص، أن ينتشل الكثير من أبناء جلدته عندما أوشك أن يجرفهم السيل. عدا عن مروءته وكرمه وحكمته التي أهّلته لأن يحتل مكانة عالية بين القوم. فمجتمع القرية الصغير، بقدر ما جمعته المخاطر وجعلته متماسكاً إلى أبعد حد، كان بسيطاً ذا تصميم نادر في استنبات الخير من تلك المناطق المحدودة في إمكاناتها الاقتصادية، الغنية بتقاليدها الأصيلة التي أصبحت مع الوقت تشكل علائم الرجال ومصدر فخرهم وعزتهم. استطاع أبو راشد نيل حظوة كبيرة في مجلس القرية فخُصص له مكان متقدم إلى جانب الرعيل الأول من الأجداد الذين يعود إليهم الفضل في تأسيس هذا المجتمع الصغير بحجمه والكبير بتأثيره في المناطق المجاورة التي تعتبره بوابتها إلى البحر.

لم يكن أبو راشد يتخيل أن تجور عليه الأيام، فلا يرزق بطفل بعد

سنوات زواجه الطويلة من عليا. تلك اللمعة الحزينة في عينيه، كانت الدليل الأبرز على العبء الذي يرزح على صدره بسبب عدم الإنجاب. ورغم أنه لم يترك وزوجته طبيباً إلا وذهبا إليه، إلا أن جميع الأعشاب والوصفات العربية القديمة لم تنفع مع عليا فتجعلها تحمل بالمولود المنتظر القادر على إزاحة الهم من حياتها التي لم تكتمل بولادة طفل يشبع شوقها لإحساس الأمومة. ورغم أن أبو راشد كان مقتدراً يمتلك مزرعة ومنزلاً ولديه بعض الأعمال البسيطة التي تدر عليه ما يكفي ويزيد. لكنه ظل يشعر بالنقص، ففرحته لم تكتمل بالحصول على طفل تقر له عينه وتسكن روحه. كان يهرب من المنزل كل يوم إلى المزرعة لأن قضية الإنجاب تدق في عقله وقلبه مثل الاسفين. لكن مع فشل محاولات المعالجة، ظهر الإنجاب أشبه بالمستحيل بالنسبة إليه. كان يشعر بالأسى وهو يشاهد أبناء جيرانه وهم يساعدون آباءهم في تقليم الأشجار وحراثة الأرض. ولطالما فكر في مصيره بعد أن يكبر ويطعن في السن. من سيعتني به ولمن سيترك هذه الأملاك التي أكلت من عمره الشيء الكثير. لم يبق أمام أبي راشد سوى الهروب من المنزل، خاصة بعد أن نشبت الخلافات بينه وبين زوجته عليا حول موضوع الإنجاب، فكان يخرج إلى المزرعة ويمشي مطولاً في الأراضي الواسعة، محاولاً إشغال نفسه بزيارة الأفلاج وتفقد المياه الجوفية أو تتبع النباتات الموسمية. أما في المساء فيفضل الذهاب إلى مجلس القرية المنعقد في منزل أخيه أبي سالم كي يروّح عن نفسه قليلاً عبر الاستماع إلى

أخبار الصيادين والتجار العائدين من الأسفار أو المزارعين المتباهين بمحاصيلهم. الجميع كان يدرك حجم الضيق الذي يعيشه أبو راشد، فكانوا كثيراً ما يقطعون لحظات تأمله العميقة وصمته المطبق بتوجيه الحديث إليه مستفسرين عن أحوال التجارة والزراعة.

اشتُهر أبو راشد بزراعة أشجار النخيل التي تحظى بعناية خاصة منه في المزرعة. وقد عمد إلى إطلاق اسم معين على كل شجرة، كأنه كان يعوض عن فقدانه لميزة الأبوة والأبناء بمحاكاة أشجار النخيل. ففي لحظات الوحدة والفراغ التي يقضيها في أرضه، كان يشرع بالحديث إلى الأشجار فيحدثها عن معاناته وهو يسكب لها الماء ويقوم بحفر التربة المحيطة بالجذوع. وفي بعض الأحيان يبدأ بالغناء الحزين الذي يصل صداه إلى المزارع القريبة، حيث يدرك الجميع أن الكرب نال من أبي راشد ما نال، فيلجأ بعضهم إلى زيارته في المزرعة لتسليته وإزاحة الهم عن قلبه قدر الإمكان.

لم يستطع أي من الأطباء تحديد السبب الذي يمنع أبا راشد وزوجته عليا من الإنجاب، وكان أبو راشد يخشى أن يكون العيب فيه، فيحزن عندما يفكر بأنه السبب في حرمان زوجته من الأمومة. كذلك الأمر بالنسبة لزوجته عليا التي لم تكن تضغط عليه كثيراً في هذا الموضوع حتى لا تشعره بالنقص وهو بالنسبة إليها سيد الرجال. كان كل منهما يكتم قهره ويعاني بصمت كي لا يسبب الألم للآخر. رفض أبو راشد

عرض أخيه أبي سالم عندما حاول إقناعه بتبني إحدى بناته بعد أن أنجبت زوجته طفلتها الرابعة. كان أبو راشد يدرك هول الأبوة والأمومة، فيقول لأخيه إنه لن يحرم أخاه وزوجته من الابنة الجديدة، ولن يحجب عنهما إحساس الأبوة والأمومة الحقيقيين، حتى لو كان ذلك يسهم في مداواة جرحه وشعوره بالنقص. فيكتفي أبو سالم حينها بالتربيت على كتفه وتهوين الأمر عليه طالباً منه الرضوخ إلى مشيئة الله تعالى الذي لم يأذن حتى اللحظة بأن يصبح أخوه أباً.

انشغل أبو راشد بأعمال التجارة البسيطة، هرباً من التفكير بموضوع الإنجاب. وقد تمكن من جني مرابح معقولة عبر سفرياته الكثيرة إلى القرى المجاورة والمدن. كان يهيم على وجهه دون أن يقصد جمع المال لكنه نجح في تجارته انسجاماً مع نيته الطيبة كما يقول أخوه أبو سالم. وفي إحدى السفرات للمدينة، ألح عليه صديقه تاجر الأقمشة أن يمعنَ النظر في مجموعة النساء اللواتي كن يستعرضن أنواع الأقمشة في محله الكبير، مؤكداً أنهن من عائلات شهيرة وصاحبات جاه وأخلاق كريمة تؤهل أية واحدة منهن لأن تكون زوجته الثانية أمّ أبنائه التي ستزيح عن صدره هذه الصخرة التي تنال من حياته وتكاد تودي به إلى الهلاك. أخبره صديقه التاجر أن بإمكانه الزواج في المدينة واستئجار منزل بشكل خفي عن زوجته عليا حفاظاً على مشاعرها كي لا تتعرض لمزيد من الحزن، إلى أن يأتي الوقت المناسب فيصارحها

بالموضوع بعد أن ينجب ابنه الأول. لكن أبا راشد كان يصاب بالحيرة والتردد، خوفاً من أن يكون عدم الانجاب يعود إلى عيب يعاني منه هو شخصياً وليس زوجته عليا. كانت هذه الحقيقة بمثابة الكارثة التي تجعله لا يقدم على تلك الخطوة، رغم السحر الذي تركته تلك النساء الجميلات بقوامهن الرشيق ونظراتهن الساحرة على قلبه المتلهف لتتويج المحبة بالإنجاب.

في كل مرة، كان أبو راشد يعود محملاً بالهدايا إلى زوجته عليا، كأنه يحاول التكفير عن الذنب بعد الأفكار التي راودته أثناء وجوده في المدينة حول الزواج من امرأة ثانية، أما عليا التي كان ينتابها القلق والشك في كل مرة يتأخر فيها أبو راشد أو تكثر سفرياته، تحاول إخفاء هواجسها تلك بالابتسام والشروع بتجهيز الطعام لزوجها وتناول أحاديث تبدد الوجوم المسيطر على الاثنين.

تمنى أبو راشد في قرارة نفسه أن يصارح زوجته عليا برغبته في الزواج من امرأة ثانية من أجل أن يرزق بمولود تقرّ له عيناه ويسعد له قلبه. لكنه ظل دائماً يخشى من ردة فعلها ويرى أن قبولها بهذا مستحيل وأن حياتهما ستصبح مدمرة إذا ما حصل ذلك. فيستبعد الفكرة على الفور ويحاول إبداء الاهتمام بزوجته عليا أكثر من السابق، وفي الحقيقة كان الشك يزداد لدى عليا كلما جلب أبو راشد المزيد من الهدايا وقابلها بالكلام المعسول.

لم يكن أبو سالم، الأخ الأصغر لأبي راشد، أقل شأناً من أخيه. فهذا الشاب المفتول العضلات، تمكن من مصارعة ذئب بحجم حمار عندما تعرض قطيع جاره في المزرعة المجاورة لهجوم من تلك الحيوانات الشرسة الجائعة، وقد ظهرت علامات الإكبار والإعجاب على جميع أهالي القرية عندما رأوا أبا سالم وهو يجر الذئب المقتول بخنجره الحاد إلى ساحة القرية كي يشاهده الناس قبل أن يصبح طعاماً للغربان والضواري الأخرى. كل ذلك، إلى جانب نجاح أبي سالم في تجارته وزراعته ورزقه بأربعة بنات، لم يكتمل الفرح في قلبه، فكثيراً ما كان يعود إلى البيت وهو يجر أذيال الحزن على أخيه أبي راشد بعد أن يلقاه في المجلس صامتاً حزيناً، فيشكو لزوجته حال أخيه ويطلب منها مساعدته في إيجاد حل يعيد الفرح إلى قلب أخيه بمولود تقر له عيناه وتسكن روحه بعد انتظار طويل. فتطلب منه أم سالم الرضوخ لمشيئة الله تعالى والقبول بما قسم لعباده من خير ورزق، ثم تشرع بالدعاء أن يفك الله كرب أبي راشد ويرزقه ما يشتهيه قلبه.

حاول أبو سالم أن يلازم أخاه أبا راشد على الدوام حتى لا تنفرد به الهموم فتفتك بقلبه المثخن بالحزن. وكثيراً ما كان يلحق به إلى المزرعة لينقذه من الفراغ والوحدة، أو يبادر أحياناً لطرح مشاريع تجارية أو زراعية يعلم حماس أبي راشد تجاهها. وفي المرة التي تجرأ فيها أبو سالم على طرح فكرة الزواج على أخيه، غضب أبو راشد كثيراً

وطلب منه ألا يعود إلى فتح هذا الموضوع أبداً. لقد تحول أبو راشد إلى عبء يثقل كاهل أبي سالم الذي لم يعد يعرف طريقة يخرج فيها أخاه من قاع الحزن لينعم بالحياة كبقية الناس.

-3-

إنه الأسبوع الأخير من يناير. حيث الهواء الرقيق يبدأ بمداعبة أوراق الشجر إيذاناً بقدوم الربيع بعد أيام من الريح القوية المحملة بالغبار، ثم يأتي المطر ليغسل النباتات والمساحات الجرداء الممتدة في البرية التي تستعد لإنبات البذور. خرج أبو راشد إلى الخلاء تاركاً العنان لقدميه اللتين تحفظان تلك الأرض جيداً. كانت قطرات الندى لاتزال محمولة على أكفّ الأوراق الخضر، وعند الصخور الصغيرة راحت بعض النباتات تمد رأسها باتجاه الضوء. إنها من المشاهدات النادرة التي احتفظت بقدرتها على بث الفرح في قلب أبي راشد. هناك كان يشعر بالتجدد والانبعاث والحيوية، فيبتهل إلى الله أن تبرعم روحه فيرزق بمولود أسوة بهذه الأرض. وعندما توشك عيناه على الانهمار بالدمع وتخنقه الغصة والتشنجات، يهرع إلى إشغال نفسه بتتبع النباتات الجديدة التي ستنمو سريعاً مع أشعة الشمس. كان يتأمل نبتة زهرة الشوك وهي تبدأ رحلتها الطويلة في البرية متسلحة بالصبر والتقتير باستهلاك الماء حتى تنجز مهمتها في إنتاج تلك الزهرة البنفسجية التي تبقى

موسماً كاملاً تربّيها حتى تنضج وتنتهي في مؤونة بيوت القرية كدواء للكثير من الأمراض. كان أبو راشد يحاول جاهداً ألا يطأ البذور التي بدأت تنتش وتطل برأسها من تحت التراب، وعندما يشاهد من بعيد أطفال القرية وهم يجرون فرحاً بهذا الطقس المناسب للعب، تعود إليه الطمأنينة بمشاهدة دورة الحياة تتابع طريقها. إنها رباطة الجأش التي حاول دائماً عدم فقدانها.

قضى أبو راشد معظم يومه في البرية، وكان كلما تعب، تناول حبة تمر من صرّته أتبعها بشربة ماء، ثم جال بنظره باتجاه الأفق مترامي الأطراف الذي ينتهي بالبحر، في البعيد تظهر خيالات مراكب الصيادين يغطيها الضباب المنبعث من الماء، وباتجاه سفوح الجبال الصخرية المنحوتة كوجوه بشر قدماء، تظهر بعض من شجيرات الغاف المتناثرة عند المنحدرات، كأنها تسير بكامل خضرتها نحو القرية. ترى أية قوة تمتلكها هذه الأشجار حتى تحتفظ بنضارة لونها طيلة العام؟ هكذا كان يسأل نفسه ثم يتابع الطريق.

في ذلك اليوم، حاول أبو راشد جاهداً، ألا يجرّ أذيال الخيبة معه للبيت. أصر على الاحتفاظ بحيوية الطبيعة في شهيقه العميق، حتى لا تشمّ زوجته عليا رائحة اليأس مع زفيره الحار. دخل من بوابة الدار الكبيرة وهو يتمسك بإشراقة وجهه باستماتة وبسالة قل نظيرهما، ثم

راح يتصنع الضجيج إيذاناً لزوجته بوصوله للمنزل. كانت عليا تدرك فحوى هذا الرجل وتحفظه عن ظهر قلب. فهي قد خبزته وعجنته وحفظت تقلباته وما يعتريه من دون أن تضطر للسؤال أو الاستفسار. ماذا أعددت لنا على الغداء؟ قالها أبو راشد مخاطباً عليا بكثير من التودد. كانت عليا تجهز الكلمات كي تبدأ بالحديث عن طبيب مشهور بمعالجة النساء ومساعدتهن على الإنجاب، يسكن في إحدى القرى المجاورة. لكن الخوف من غضب أبي راشد الذي ملّ من مراجعة الأطباء، جعلها تحاول اختيار كلماتها جيداً. خشيت عليا أن تفقد تلك المودة التي قابلها أبو راشد بها، إذا ما بدأت بفتح موضوع الإنجاب، فتصنعت بعض القصص عن نساء استفدن من مراجعة ذلك الطبيب بعد عناء وانتظار طويلين. لكن أبا راشد بقي يلتهم طعامه بشكل صامت دون أن ينبس ببنت شفة. وكلما أوغلت عليا بالحديث، تمسك زوجها بالانطباعات والأحاسيس التي عاد بها من نزهته في البرية. كان يقول في نفسه: سأبقى مثل شجرة الغاف أو مثل زهرة الشوك. ترى أية إرادة وصبر تمتلكها تلك النباتات؟.

طلب أبو راشد من زوجته تأجيل الحديث بهذا الموضوع للمساء، فهو راغب بالاستسلام للقيلولة والنوم. إنها الخيالات التي عاد بها من البرية، هي التي قررت أن تؤازره اليوم إلى أبعد حد. هكذا استلقى أبو راشد على جنبه ممسكاً بالغطاء ومتوسّداً أريكته في غرفة المعيشة،

حيث للغفوة إغراؤها الذي لا يقاوم بعيداً عن الطقوس المعتادة للنوم في الأسرّة. كان يغلق عينيه ببطء ويطلق العنان لأفكاره وخيالاته، وفي صدره بقي محتفظاً بذلك الشهيق الحيوي الذي عاد به من البرية، كان يحاول أن يبقيه فلا يزفره.

ساعة كاملة انقضت، قبل أن يصيب زوجته عليا الملل من انتظار لحظة استيقاظ زوجها. دخلت عليا إلى غرفة المعيشة مرات عدة. بحثت بين الأدراج عن شيء لا تعرفه كي تحدث بعض الجلبة. ثم اتجهت نحو المطبخ متظاهرة بترتيب الأواني. كان أبو راشد يغط في نوم عميق وصوت شخيره يصل إلى أول الردهة التي تحيط بالبيت. استسلم أبو راشد بسعادة لحلم غريب أعاده إلى البرية، كانت النباتات قد نضجت واشتدت أغصانها وارتفعت في الهواء، وبينما شرع ينظر مشدوهاً فاغراً فاه لهذا المنظر الجميل، ظهرت أمامه طفلة جميلة بجديلتين ساحرتين وعيون براقة. كانت الطفلة تمد ذراعيها باتجاهه وتطلب منه التقدم إليها. لكن أبا راشد لم يتمالك دموعه التي انهمرت بغزارة فغسلت وجهه بعد أن شعر بهذه الطفلة وكأنها قطعة منه. وبدون تردد، خطا نحوها يريد معانقتها وأخذها بين ذراعيه، لكن صوت عليا كان أسرع منه وهي تنادي: ما بك يا أبا راشد؟ استيقظ لاشك أنك تعاني من كابوس. انتفض الرجل من أربعته ثم بدأ بمسح دموعه التي غطت الوسادة. بسم الله الرحمن الرحيم، لاشك أنه كابوس أصابك بعد تلك

الوجبة الدسمة التي تناولتها، قالت ذلك عليا، بينما ظهرت علامات الغضب الشديد على وجه أبي راشد الذي كان يتمنى لو يطول الحلم دهراً فلا يفقد تلك الطفلة بثيابها البيضاء وعينيها السوداوين اللتين كانتا تلمعان بشدة تحت ضوء الشمس. جال أبو راشد بنظره طويلاً في أرجاء غرفة المعيشة ثم حدق في وجه زوجته التي اكتشفت أنه في ذروة الغضب، ثم نهض مغادراً المنزل بسرعة، كأنه يحاول اللحاق بشيء ما.

وصل أبو راشد إلى بيت أخيه أبي سالم حيث يعقد مجلس القرية يومياً، ومن اللحظة التي دلف فيها من الباب عابراً فناء المنزل باتجاه المضافة الكبيرة التي تقع في جوار البيت، أدرك أبو سالم أن خطباً ما قد حصل لأخيه. كان أبو راشد مضطرباً ذا عينين زائغتين توحي بأنه فمه مليء بالكلام الذي دفعه للمجيء مبكراً إلى المجلس كي ينفرد بأخيه قبل قدوم رواد المجلس الآخرين. رحب أبو سالم بأخيه ودعاه للجلوس، وما إن أخذ الاثنان مكانهما في صدر المجلس، حتى بدأ أبو راشد برواية الحلم الذي رآه في قيلولة الظهر، وكيف سحرته تلك البنت الصغيرة التي شعر بأنها قطعة من جسده وروحه. كان أبو سالم يستمع دون أن يبدي ردة فعل سوى الإنصات وهز الرأس بين الحين والآخر. استفاض أبو راشد بالحديث وتفسير المنام، وقال إنه يشعر أن هذا الحلم

يشكل فأل خير كبير ينتظره. لم يعرف أبو سالم بماذا يجيب أخيه الذي فتك به هم الإنجاب وصار أسير الأحلام، وبينما كان أبو راشد يحكي بحماس رؤيته تلك ويحاول تفسيرها كإشارات خير أو إرشاد إلى الطريق الذي يجب أن يسلكه للحصول على طفل يحمل اسمه، حاول أبو سالم أن يهدىء من روعه ثم جاراه قليلاً عندما وافقه بأن هذا الحلم يحمل دلالات خير بالتأكيد.

كان من الواضح أن أبا راشد وصل إلى طريق مسدود مع زوجته عليا. فقام بإخبار أخيه عن الفكرة التي طرحها عليه صديقه تاجر القماش في المدينة عندما أخبره بضرورة أن يتزوج من امرأة ثانية تنجب له ولداً وتنقذه من حالة القلق والكرب التي تسيطر عليه. لكن أبا سالم أخبر أخاه بأن يتريث قليلاً ويوكل أمره إلى الله تعالى الذي سيختار له الخير لأنه إنسان مؤمن وحياته مليئة بالحسنات والتزام الطريق القويم. لكن أبا راشد ظهر عديم الصبر وكأنه ضاق ذرعاً بحاله التي لا تسر عدو ولا صديق، وقد أكد لأخيه على الفور بأنه عازم على تنفيذ نصيحة صديقه تاجر القماش في الزواج من امرأة ثانية واستئجار منزل لها في المدينة عسى أن تكون أماً لابنه القادم الذي سيفرج همه ويبعث في روحه الطمأنينة والسلام. عندها ما كان من أبي سالم إلا أن سأل أخاه عما سيفعله إذا لم تنجب زوجته الثانية كما يأمل، متجنباً أن يقول لأخيه: وماذا ستفعل إذا كنت أنت سبب عدم الإنجاب؟.

صُدم أبو راشد من هذا الكلام، وظهرت عليه علامات الغضب ثم سأل أخاه عما يجب أن يفعله في هذه المعضلة التي استشار فيها جميع الأطباء دون فائدة؟. كان أبو راشد متوتراً كأن لوثة أصابته من شدة التفكير، فحاول أبو سالم أن يطيب خاطره ويهدىء من توتره، طالباً منه ألا يتخذ أي قرار الآن وأن يتريث حتى تتضح الأمور خلال المرحلة المقبلة، وبعدها فليفعل ما يراه مناسباً. في هذه الأثناء بدأ الرجال المعتادون على حضور المجلس بالوصول، وظهر أبو راشد غير قادر على مجاراتهم كما يجب بالتحيات والأحاديث المعتادة التي يتبادلونها مع القهوة العربية المرة التي ملأت رائحتها المكان، فالمرارة التي تعتصر قلبه لم يكن يضاهيها شيء، هكذا اعتذر أبو راشد من المجتمعين وغادر المجلس عابراً الطريق الموحش المظلم باتجاه منزله بصمت لا يكسره سوى عواء بعيد كان يصل من البرية الواسعة مثل النحيب.

-4-

دخل أبو سالم إلى بيته بعد انفضاض المجلس ورحيل الحاضرين إلى منازلهم، وعلامات الضيق تظهر على وجهه بسبب الحال التي وصل إليه أخوه أبو راشد، لكن بناته الأربع الصغيرات، كنّ دائماً الوحيدات القادرات على الترويح عنه وإشعاره بالفرح والسعادة. استمع مطولاً إلى طلباتهن وتسلى معهن قليلاً ثم طلب منهن الخلود إلى الفراش لأن الوقت تأخر

والبنتان الكبيرتان لابد أن تذهبا صباحاً إلى الكتاتيب لإكمال دروسهما في تعلم القرآن. النوم مبكراً يعتبر ميزة عامة في حياة أهل القرية، فالمزارعون والصيادون والتجار الذين غالباً ما يسافرون إلى المناطق المجاورة كي يعودوا بالبضاعة والاحتياجات الأخرى، جميعهم يغادرون إلى أعمالهم مبكراً، لكن النوم كان قد جفى عيون أبي سالم، فنده على زوجته أن تطمئن إلى نوم البنات ثم تأتيه كي يتسامرا عله يفضفض قليلاً فيرتاح مما يثقل صدره. تميزت أم سالم على الدوام برجاحة عقلها وحكمتها ومحبة أبي سالم الكبيرة لها، فقد ساندت زوجها وساعدته حتى وصل إلى هذه المرتبة العالية بين القوم، كانت بعيدة عن قصص النساء العاديات، وقد تباهت نساء القرية بمعرفتهن بها، وحرصت كثيرات على زيارتها وكسب ودّها نظراً لما اشتهرت به من خصال حميدة ورأي سديد جعلها مقصد جميع النساء ومصدر فخرهنّ. أهل القرية يذكرون جيداً أصلها الطيب، خاصة عندما عملت في السنوات الأولى لزواجها من أبي سالم، في أعمال الخياطة النسائية التي ورثتها من أمها، وكيف شجعت زوجها أبا سالم لافتتاح محل للملابس العربية الخاصة بالرجال والنساء نظراً لخبرتها في أنواع الأقمشة وما يمكن أن يفضله الزبائن. لقد جعلت زوجها يقف على قدميه في التجارة ويصبح من التجار الأوائل في المنطقة إلى جانب عمله في الزراعة التي تدر عليه مالاً جيداً. عندما جلست أم سالم مع زوجها في تلك الليلة، كانت تعرف بفراستها وذكائها سبب ضيقه وكربه، لكنها تركته يسهب في الحديث

حتى يرتاح من الهم عساه يرتاح قليلاً. تحدث أبو سالم مطولاً عما وصل إليه أخوه أبو راشد من معاناة بسبب عدم الإنجاب، وحث زوجته على مساعدته في التفكير لإيجاد حل لهذه المشكلة التي تقض مضجع أخيه وزوجته وتجعلهما لا يعرفان طمأنينة ولا راحة بال.

تأخر الوقت وأبو سالم لم ينه كلامه، كأنه كان يعرف سلفاً ما ستقوله زوجته، لكنه كان يحتاج من يستمع إليه، كانت أم سالم تتدخل بشكل بسيط في الحوار وقد بدت مرهقة من الاستماع المطول لهذا الموضوع التي سبق أن سمعته مراراً وتكراراً. الديكة في المزارع القريبة بدأت تصيح معلنة قدوم ساعات الصباح الأولى، وأبو سالم مازال مسترسلاً في الحديث، مما دفع بزوجته لأن ترجوه أن يرأف بنفسه قليلاً ويخلد للنوم والراحة، لأن ذلك كله لن يساهم في حل مشكلة أخيه. أخبرته بأنها ستحاول أن تساعده بشتى الطرق عبر صديقاتها النساء في القرية والقرى المجاورة اللواتي يعرفن أو سمعن عن حالات عدم إنجاب تم علاجها. مؤكدة أن إيمان المرء الراسخ بقدرة الله سبحانه وتعالى تكفي لأن تبث الطمأنينة والسلام في نفس أي شخص يتعرض للأزمات أو تحدق به الصعاب. كررت أكثر من مرة على مسامع زوجها أبي سالم، أن يصارح أخيه بضرورة الصبر أو التسليم بنصيبه من هذه الدنيا، وقبل ذلك وعدته بأنها ستبذل كل ما في وسعها للوصول إلى طريقة تنقذ فيها زوجها قبل أن تنقذ أخاه.

الفصل الثاني

خيّم الظلام على القرية، وظهر الصمت المطبق في تلك الليلة، مخيفاً لعليا المثقلة بالهموم، لقد تأكّدت أنّ أبا راشد يبتعد عنها والمسافة بينهما تتسع، خاصّة بعد أن تكرر مبيته في المزرعة وقضاؤه ساعات طويلة في النهار والليل وحيداً يحاكي أشجار النخيل والحمضيات الّتي أصبحت الوحيدة القادرة على فهمه. لم يكن يكسر السكون إلّا أصوات الضّواري بعد أن فتك بها الجوع وجعلها تقترب من المنازل عساها تعثّر على ما يسدّ الرّمق. قامت عليا باتّجاه المطبخ فصنعت كوباً من النّعنع ثمّ جلست خلف النّافذة تراقب قدوم أبي راشد من المزرعة. في قرارة نفسها كانت تدرك أنّه يفضّل الوحدة على مواجهة الحقيقة الصادمة المستعصية على الحلّ. كانت دموعها تنهمر بغزارة على وجهها الأسمر وتميل عيونها الحوراء للاحمرار كلّما زاد النشيج الصادر من صدرها كأنّها لبوة جريحة. هل يمكن أن يتزوج أبو راشد بامرأة ثانية من أجل الإنجاب؟ سألت نفسها مراراً وتكراراً دون أن تتجرأ على الاعتراف بالواقع. لقد جرحتها أنوثتها المهدورة وهجران زوجها كأنّها أرض يباب لا تثمر. أدارت عليا كوب النعنع الحار بين

كفيها الرقيقتين محاولةً أن تنسى الألم الصادر من أعلى معدتها، منتظرةً أن يبزغ الضوء فيعود أبو راشد ليأخذها إلى طبيب القرية. حاولت أن تبقى مستيقظة كي لا يتمكن منها الإغماء بعدما قاومته عدة مرات.

دخلت إلى غرفة الأولاد التي جهزتها مع زوجها أبي راشد منذ الأيّام الأولى لزواجهما، كان نحيبها القاسي يصل إلى الجوار وهي تئن فيختلط نشيجها مع أصوات الضواري في الخارج، ليعطي المشهد سريالية محزنة. تفقدت عليا ثياب الرضيع المنتظر ثمّ مسّدت بكفيها على فراشه الناعم. استعرضت ألعابه التي اشتراها أبو راشد من المدينة ثم انهمكت بتحريكهم ومناغاتهم ثم تأمّلت طويلاً مجموعة الألوان المعلقة فوق السرير. ذلك الطفل المنتظر، سيكون كفيلاً بتغيير حياتها رأساً على عقب، وكم كانت تغرق بالنشيج كلّما تخيلت أنّها عاقر لا يمكن أن تنجب الأطفال. لاشك سيتزوج أبو راشد بامرأة ثانية، وأذوي وحيدة ثمّ أطعن في السن ولا أجد من يساند وحدتي. هكذا كانت تقول في نفسها فيعلو عويلها أكثر. ساعة كاملة قضتها عليا في غرفة ابنها المنتظر، فوصلت إلى درجة لا تحتمل من الإعياء والتعب، وللوهلة الأولى خيل لها أن ستموت قبل أن يحصل كل ذلك. كانت تبتهل إلى الله ثمّ تندب حظها العاثر، وبعد جهد كبير غادرت الغرفة وبدت كأنّها خارجة من مأتم وقد نال منها النحيب ما نال.

عادت الذاكرة بها إلى سنين الطفولة، محاولة أن تهرب صوب زمن بعيد لا تطاله المعاناة. كان البيت صغيراً مع حديقة في الفناء تقضي فيها معظم الوقت مع ابنة الجيران تحت شجرة الحمضيات وهما تلعبان بالعرائس وبناء البيوت الصغيرة حيث ستضعان فيها مجموعة الأطفال التي صنعتاها من عيدان النباتات والأقمشة القديمة. لم تنس عليا حتى اليوم ولعها بالأمومة، وتباهيها على صديقتها بترتيب بيتها الصغير الذي بنته من الرمل والأحجار التي جمعتها من أرض الحديقة. إنّها تحفظ عن ظهر قلب، معالم شجرة النخيل العالية وسط المنزل وأحواض النباتات الخضراء والأزهار التي تزين حديقة المنزل كأنّها إسوارة من عطر. تمنت لو تستطيع زيارة صديقتها المتزوجة في إحدى القرى البعيدة. كانت بحاجة لأن ينتشلها أحد مما هي فيه من ضيق. لماذا يكبر المرء ولا يبقى صغيراً بلا أحزان؟ تمنت عليا لو حصل لها ذلك فبقيت طفلة ولم تمت أمها وأبوها لتصبح وحيدة في هذه الدنيا. كأنّ عليا كانت على موعد مع جميع هموم العالم في تلك الليلة الثقيلة بطيئة الوقت وكثيرة الألم.

كانت الدقائق ثقيلة جداً، وتأكّدت عليا أنّ أبا راشد سينام في المزرعة، فأصوات قدميه لم تصل إلى مسامعها مخترقة الصمت المطبق كالعادة. تلك العلامات كانت بمنزلة مؤشرات مسبقة على وصول زوجها، لكن هذه الليلة ظلت خالية من أية بشارة تجعلها تتأكّد أنّ

حبيبها القديم لم يتغير ولن يتخذ قراراً تعتبره إنهاءً لحياتها كلّها. حاولت كثيراً أن تقنع نفسها أن الإنجاب غير ضروري مادام الحبّ قائم بين الزوجين، فليشيخا معاً ويتوكأ كلّ منهما على الآخر إلى أن تحين لحظة الرحيل فيحتضر كلّ واحد منهما على ذراع الآخر. هل يمكن أن يلغي عدم الإنجاب تاريخاً كاملاً من الحبّ والعشرة؟ كانت الأفكار تنهمر في رأس عليا بلا توقف، وقد فكرت بشكل جاد أن تخبر زوجها عن تلك الحقيقة التي تقول إنّهما لابد أن يستسلما للقدر وما أراده الله لهما في موضوع الإنجاب وأن يتابعا حياتهما بالسعادة والحبّ الذي بدأا به عندما تزوجا. تساءلت عليا ماذا لو كان عدم الإنجاب يعود إلى عيب عند أبي راشد؟ فهما لا يعرفان حقيقة العائق الذي منعهما من ذلك رغم مرور سنوات على زواجهما، كلّ ما في الأمر أنّ الأطباء كانوا يطلبون منهما الصبر ويشيرون عليهما بتناول أنواع معينة من الأعشاب والغذاء حتّى يأذن الله تعالى لهما بأن يصبحا أماً وأباً.

صدمت عليا وهي تفكر في احتمال أن تكون علّة عدم الإنجاب تعود لعيب عند أبي راشد. ترى ماذا ستفعل حينها؟ هل ستطلب الطلاق من أجل الزواج من رجل آخر؟ أم إنّها ستقنع بها قسمه الله لها وتقضي حياتها من دون أن يناديها ابنها أو ابنتها يا أمي؟ هل ستتخلى عن حلمها القديم منذ أن كانت طفلة تلعب في فناء البيت مع جارتها فتبنيان البيوت وتصنعان الأسرّة للأولاد من أعواد النباتات والأقمشة

القديمة؟. لقد شعرت بالهول الكبير وهي تنساق مع هذا الاحتمال وكثيراً ما تساءلت إن كان أبو راشد سيبدأ بالنحيب عندما تخبره أنّها تطلب الطّلاق من أجل الزواج من آخر بهدف الإنجاب؟ كانت تلتقط أنفاسها وتشعر بالتحسن كلّما فكرت بهذا النحو، فهو أرحم من أن تكون علّة عدم الإنجاب بسببها وبالتالي عليها تحمل وجود زوجة ثانية قادرة على تحقيق هذا الحلم لزوجها أبي سالم.

لم يبق على بزوغ الضوء إلّا القليل من الوقت. لكن عليا حسمت أمرها وقررت التغلب على أوجاعها والسير باتّجاه المزرعة حيث أبو راشد، لتخبره بأن يتقبلا موضوع عدم الإنجاب برضا وقناعة بقدرهما، وليتابعا حياتهما كحبيبين لا يقض مضجعهما شيء، ومن يدري ربما يرزقهما الله بطفل في المراحل القادمة، خاصّة أنّهما لا يعرفان السبب الذي يمنعهما من الإنجاب. قررت عليا إخبار أبي راشد بأنّها لن تتخلى عنه حتى لو كانت العلّة فيه، معتقدة أن ذلك سيدفعه لفعل الشيء نفسه بالتأكيد. أملت عليا أن تضع حداً نهائياً لتلك المأساة التي جعلتها تشعر بإحساس المطلقة وهي على ذمة رجلها، وفي الوقت نفسه تعاني من زواجه بامرأة ثانية، وهو لم يفاتحها بهذا الموضوع نهائياً.

توكأت عليا على ساق أحد النباتات الغليظة من فناء المنزل، ثم فتحت الباب وبدأت السير نحو المزرعة. كان صوت المؤذن يعلن بدء صلاة

الصبح يصل إليها وهي تبتعد رويداً عن القرية سالكة الطريق الترابي المتعرج مستعينة بضوء القمر المطل من بين الغيوم المتناثرة في هذا الوقت من العام. كان الإصرار على الخلاص من معاناتها أكبر من خشيتها من الضواري أو الحيوانات الأخرى التي يمكن أن تصادفها في الدرب. لم تتوقع أن تطول المسافة باتّجاه المزرعة بهذا الشكل، وقد قارب أن ينال الخوف منها عندما شعرت أن أصوات الضواري تقترب كلّما غطت الغيوم ضوء القمر ومنعته من الوصول للأرض، لكن خيار العودة للبيت كان بالنسبة إليها أصعب من التقدّم نحو المزرعة، هكذا تابعت عليا طريقها وقد حاولت نسيان أوجاعها المتفاقمة بسبب المشي.

بعد قليل من الوقت، بدأت السماء تميل إلى اللون الكحلي، وقد أملت عليا أن يكون انبلاج الصبح إيذاناً بفرج تلقاه عند مقابلة أبي راشد والحديث معه. كان شبح المزرعة يظهر من بعيد متلاشياً مع بقايا العتم والضباب، حتى تهيأ لها أن أشجار النخيل العالية المطلة من وراء السور، تشبه الأصابع الضخمة التي تشير إليها كي تكمل الطريق. وكلّما تقدّمت أكثر، بدت الصورة أكثر وضوحاً وزادت عليا قلقاً من لقاء أبي راشد وردة فعله على ما سيسمعه منها حول موضوع الإنجاب الذي جعله يهجر المنزل معظم الوقت ويهيم في البراري هرباً من مواجهة لا يعرف نتيجتها. كلّما قصرت المسافة التي تفصلها عن المزرعة شرع قلبها بالطرق بشكل أقوى، فهي تحفظ زوجها جيداً، خاصّة عندما ينفرد

بنفسه وينأى عن الناس كي لا يُغضب أحداً منه. لكن عليا كانت على استعداد أن تحتمل جميع ردات فعل أبي راشد في سبيل الوصول إلى حلّ نهائيّ معه، تمنت لو يفرغ كلّ غضبه فيها فهي ستحتمله حتى لو ضربها، فذلك كلّه أهون مما هي فيه من الترقّب والخوف من المستقبل. أوشكت عليا على الوصول وكان صوت لهاثها واضحاً من شدة التعب والألم الذي لم يفد معه كوب النعنع بل كان يزيد بسبب المشي والتوتر.

قبل باب المزرعة بخطوات، بدأت عليا تنادي زوجها بصوت عال وصل ترددده إلى الأصداء. في البداية لم يصدق أبو راشد أن عليا هي من تنادي واعتقد أنه يتخيل، فمن غير الممكن أن تأتي عليا إلى هذا المكان الموحش البعيد عن المنزل في ساعة متأخرة، فهي لم يسبق أن فعلتها كما أنها تعرف سلفاً كمية الغضب الذي ستلاقيه من زوجها إذا ما تجرأت على القدوم. لكن مع تكرار النداء وارتفاع حدة الصوت، هرع أبو راشد باتّجاه الباب في حالة هستيرية، راجياً ألا تكون كارثة ما قد حصلت حتى أتت عليا في هذا الوقت إلى المزرعة. كانت الأفكار تتزاحم في عقله وهو يركض باتجاه الباب من بين أشجار النخيل والحمضيات حتى إنه تعثر ووقع على الأرض وأصيب بجرح في رأسه بسبب ارتطام جبينه بجذع إحدى أشجار النخيل الحادة. فتح أبو راشد الباب والدماء تغطي وجهه، ومإن رأته عليا حتى بدأت بالصراخ من شدة الرعب، وكان أبو راشد يصرخ في وجهها كي تهدأ وتخبره عما جرى في القرية

حتى أتت في هذا الوقت إلى المزرعة. كان الاثنان يصرخان ولا يفهم أحدهما على الآخر كأن مساً من الجنون أصابهما. التقط كلّ منهما أنفاسه ودخلا إلى المزرعة ثم أغلقا الباب وبدأت عليا تمسح الدم عن وجه زوجها وهو يبعدها ويطلب منها إخباره ما الذي جرى.

كانت عليا محقة في خوفها من ردة فعل زوجها على قدومها بهذا الشكل والتوقيت إلى المزرعة، فما إن بدأت بالحديث عن موضوع الإنجاب محاولة التوصل إلى حلّ يرضي الطرفين، حتى غضب أبو راشد وبدأ يصرخ في وجهها ويوبخها على تصرفها الأرعن وعدم صبرها حتى يطلع الصباح فيعود إلى المنزل لتحدثه بما تشاء. أزبد أبو راشد وأرعد كثيراً، وأخبر زوجته أنه هرب من المنزل حتى لا يفكر بهذا الموضوع، فلماذا لحقت به في هذا الوقت المتأخر من الليل. كانت عليا تبكي وتخبره عن معاناتها وخوفها من زواجه بامرأة ثانية، مما يزيد في غضبه ويبدأ الصراخ في وجهها. تمادى الاثنان وارتكبا الأخطاء بحق بعضهما، وكانت هذه هي المرة الأولى التي تصل بينهما الخلافات إلى هذه الدرجة، كأن هذين الشخصين لم يعيشا مع بعضهما في السابق أو كأنهما يلتقيان للمرة الأولى. حمي الوطيس بين الاثنين بشكل كبير وفجأة بدأت عليا بالصراخ من الألم الذي اشتد في بطنها بشكل غير محتمل فوقعت على الأرض تتلوى من الوجع وتصيح بأبي راشد أن يأخذها للطبيب. ارتبك أبو راشد كثيراً ونسي كل الخلافات حول الإنجاب ومجيء عليا في

هذا الوقت إلى المزرعة، وقام بحملها بكلتا يديه القويتين وطلب منها أن تتماسك، لكن آلامها كانت تزداد، فانطلق بها نحو القرية، كانت عليا تشعر بشيء من الرضا وهي تشاهد هلع زوجه عليها وخوفه على صحتها، وكانت كلّما صمت قليلاً محاولاً تبين الطريق، شرعت بالصراخ بشكل أعلى مستمتعة أكثر بهذا الخوف الذي يظهر على وجهه وغافرة له كلّ الغضب الذي واجهها به لحظة وصولها للمزرعة.

أثناء الطريق، ظهر للاثنين أن المسافة بين المزرعة والبيت قد طالت كثيراً، من كثرة الأفكار التي داهمتهما وحجم الارتباك والخوف الذي عانا منه. بعد جهد مضن، وصل الاثنان إلى المنزل، واتّجه أبو راشد وهو يسند عليا إلى الداخل نحو غرفة المعيشة، وضعها على فراش ممدود ثم غطاها وطلب منها الصبر قليلاً ريثما يذهب ليأتي بأم عبيد التي تعالج نساء القرية ولديها خبرة في اختراع الخلطات المناسبة من الأعشاب المعالجة لحالات المغص وغيرها. أومأت عليا بالإيجاب ثم رجته ألا يتأخر حتى لا يحصل لها مكروه وهي وحيدة في المنزل. خرج أبو راشد مسرعاً، وغابت عليا في كثير من الأفكار والمخاوف حول هذا الألم الذي راح يشتد ولم ينفع معه شيء. للوهلة الأولى خافت من أن تكون نهايتها قد اقتربت، وتساءلت إن كان موتها يشكل حلاً لأبي راشد الذي لاشك سيتزوج بعدها وينجب الأطفال ويرتاح من كل هذه المعاناة. لكنها عادت وهدّأت من روعها قليلاً، وبدأت تتخيل وجه زوجها

وهو مصاب بالخوف عندما سقطت على الأرض وداهمها الوجع. كانت سعيدة بحبّ زوجها إلى درجة أن مسألة عدم الإنجاب لم تعد تؤرقها كما في السابق. لقد ظهرت مستسلمة للألم والحبّ اللذين اجتمعا معاً في روحها. كأنّ تلك الدمّلة التي تضخمت جداً، كانت بحاجة إلى من يفقؤها وهذا ما حصل بالفعل عندما ذهبت إلى المزرعة.

مرّ وقت ليس بالقليل حتى سمعت عليا صوت خطوات زوجها تتوقف عند الباب وتصدر جلبة في المدخل ثم تتقدّم بسرعة باتّجاه البوّابة الثانية. كانت أم عبيد تحمل حقيبتها التي لا تفارقها في هذه الحالات، وتسرع بخطوات كبيرة وراء أبي راشد الذي دخل من باب الغرفة وهو ينادي باسم عليا ويخبرها بأنه قد عاد بأم عبيد كي تداويها. أخرجت أم عبيد بعض الأدوات من حقيبتها وطلبت من أبي راشد الخروج من الغرفة، وشرعت بفحص عليا وتوجيه بعض الأسئلة حول طبيعة الألم ومتى ظهرت بوادره الأولى. بينما كان أبو راشد ينتظر في الخارج ويحاول تهدئة نفسه وطمأنتها بأن كل شيء سيكون على ما يرام. طال الوقت ولم تنته أم عبيد من معاينة عليا، ومع كل دقيقة تمر كان أبو راشد يشعر بالقلق أكثر ويفكر بطرق الباب والدخول إلى الغرفة ليطمئن حول ما يجري ويعرف هل يتطلب الأمر كل هذا الوقت. لقد ظهرت الحياة بسيطة أكثر بالنسبة لأبي راشد بعد هذه الحادثة. أفكار كثيرة أخذته ومخاوف شتى عصفت بقلبه، لكنه شعر بطمأنينة تسري في عروقه لم

يعرف مصدرها. هل يجب على الإنسان مواجهة الهول والألم حتى يشعر بحجم الخير والنعمة التي تزين حياته؟ هكذا تساءل أبو راشد في قرارة نفسه، وبدا أنه سيكتفي بأن تخرج عليا من هذه المحنة سليمة معافاة.

تأخّرت أم عبيد في معاينة عليا، وراح أبو راشد يتساءل إن كان مغص البطن يحتاج كلّ هذا الوقت من التمحيص؟ وعندما حسم أمره بالذهاب إلى غرفة المعيشة وطرق الباب من أجل التأكد مما يجري، تصاعدت أصوات زغاريد أم عبيد متلاحقة إثر بعضها، فأصيب أبو راشد بالصدمة واعتقد أن أم عبيد فقدت عقلها وراحت تزغرد بينما زوجته عليا على فراش المرض تعاني الألم. لم يمتلك أبو راشد الكثير من الوقت كي يسترسل في الخيالات، فقد فتحت أم عبيد باب الغرفة وهي مستمرة بالزغردة ثم اتّجهت إليه وعلى محياها ابتسامة عريضة.. مبارك يا أبا راشد.. زوجتك حامل!. صاح أبو راشد بأعلى صوته: ماذا؟ وهرع باتّجاه الغرفة حيث تستلقي عليا وقد نسيت كلّ أوجاعها. راح الاثنان يحتضنان بعضهما ويبكيان كأنهما طفلان صغيران! لقد اختلطت أصوات الزغاريد بالنحيب بشكل يدعو للدهشة، خاصّة عندما كانت أم عبيد تبكي وتزغرد في الوقت نفسه، فهي تعرف مدى المعاناة التي تكبدها الزوجان خلال سنوات من زواجهما وهما ينتظران تلك اللحظة التي سيكون لها تأثير كبير على حياتهما منذ اللحظة. كان علائم الصباح بدأت تظهر، والخيوط الأولى للشمس وصلت إلى أعلى أشجار النخيل في حديقة بيت أبي

راشد، وكان الضجيج الحاصل بسبب زغاريد أم عبيد وبكاء أبي راشد وعليا، كافياً لأن يدفع أهالي القرية الذين من عادتهم الاستيقاظ باكراً، إلى القدوم إلى المنزل كي يتبينوا ماذا يجري. خلال دقائق معدودات اجتمع معظم أهالي القرية وشهد بيت أبي راشد جموع المهنئين بالخبر السعيد الذي طالما انتظره الناس جميعاً. كانت سعادة أبي راشد بالنسبة إليهم سعادة لجميع الأهالي، فرح طفولي نادر ظهر على وجه أبي راشد وهو يستقبل جموع المهنئين، وقد تساءل في قرارة نفسه إن كان ما يجري حلم أم حقيقة فعلاً؟ من أكثر الفرحين بهذا الخبر، كان أبو سالم، الذي لم تقلّ معاناته عن معاناة أخيه بسبب قلقه عليه وحزنه الشديد، وقد دعا أبو سالم جميع أهالي القرية إلى الاحتفال وتناول الغداء في ذلك اليوم الذي وصفه بالعظيم. كأنّ القرية خلعت ثوب الحداد والحزن وارتدت ثوب الفرح بين لحظة وأخرى، وكم كان أبو راشد يتمنى أن يتاح له الوقت ليهرب من الضيوف قليلاً ليطمئن على زوجته عليا ويعبر لها عن حبّه الكبير لها. كان يقسم أمام الملأ أنه لن يجوع فقير ولا يضل تائه ولا يظلم امرؤ في القرية بعد هذا اليوم العظيم. قالها أبو راشد بفم ملآن: سنتقاسم السعادة ونتغلب على الأحزان معاً.

-2-

ليلة لن ينساها الأهالي مرت على القرية، فمنذ اللحظة التي زغردت

فيها أم عبيد معلنة عن حمل عليا زوجة أبي راشد، تغيرت أحوال هذه الأسرة بشكل جذري، بل إن جميع أبناء القرية شعروا أن الفرحة تخصهم، فأفضال أبي راشد عليهم كبيرة جداً، فهو لم يترك مكروباً إلا وفرّج همه، ولا محتاجاً إلا ولبّاه، ولا مظلوماً إلا وأنصفه. انبرى رجال القرية ونساؤها لتجهيز لوازم الاحتفال، الشباب شرعوا مبكراً بتأدية الرقصات الشعبية مع أغنيات الفرح، وفرقة الرزفة بدأت بغناء قصائد الشعر العربي مع الرقصة الفلكلورية. النساء شرعن بإيقاد النار وتجهيز قدور ضخمة للطبخ بعدما وفى أبو راشد بنذره فذبح عشرة خراف، عدا عن الذبائح التي قدمها أخوه أبو سالم وغيره من الأقرباء والأصدقاء. كانت الولائم تعدّ بشكل لم تشهده القرية من قبل، وقد تنادى بعض المعارف من المناطق المجاورة للحضور والمشاركة في هذا الاحتفال الكبير. كانت أم سالم تشرف على أعمال النساء المنهمكات بتجهيز الطعام ومعدات الاستقبال بهمة نادرة توازي فرحها بانزياح الهم عن أبي سالم بعد هذا النبأ السعيد الذي منّ الله به على أبي راشد. كأن الجميع كانوا بانتظار هذا الحدث كي يشعروا بالتغيير الكبير في حياتهم، فهم يعرفون أن قدر القرية أن تتقاسم الأحزان والأفراح بشكل عادل.

طيلة الاحتفال واستقبال المهنئين، كان أبو راشد يشعر بالقلق ويريد أن ينتهي كل شيء بسرعة فيعود للمنزل ليطمئن على زوجته عليا بعد أن طلبت منها أم عبيد أن ترتاح فلا تتعب نفسها بالمشي والعمل في

البيت حفاظاً على سلامة الجنين. أعادت تلك الأجواء إلى أبي راشد ذكرى زواجه والعرس الكبير الذي أقيم له في ساحة القرية، ولم يكن يستوعب تلك النقلة النوعية التي حصلت له بعد أن كان غارقاً في الحزن لعدة سنوات بانتظار هذه اللحظة التاريخية. حمد الله كثيراً لأنه لم يتسرع بالزواج من امرأة ثانية في المدينة نزولاً عند نصيحة صديقه تاجر الأقمشة. كان يبدو مرتاحاً ممتناً لتلك الجموع التي تقاطرت من أجل مشاركته الفرحة، إلى درجة أنه عانق جميع المهنئين بينما كان أخوه أبو سالم يضاهيه سعادة وهو يرى تلك الغمامة السوداء تنزاح بعد أن سببت كدراً كبيراً لجميع المحيطين بأبي راشد.

في نهاية الاحتفال، أصرّ المحتفلون على إيصال أبي راشد إلى المنزل مصحوباً بالأغاني التي كان يصل صداها إلى أذني زوجته عليا وهي تنظر من وراء النافذة كأنّها تشهد ليلة عرسها للمرة الثانية. عليا اليوم لا تقلّ عن الملكات بالنسبة لأبي راشد وأهل القرية، فهي ستشهد قدراً كبيراً من الحبّ والرعاية التي افتقدتها لزمن طويل، لقد شعرت أنّها استردت كل شيء خسرته في السابق وفي مقدمة تلك الأشياء محبّة أبي راشد وتعلّقه بها.

مرّت شهور الحمل بسلام، والتزم أبو راشد بقضاء معظم وقته في المنزل، فخفت سفرياته وحاول أن يعطي مولوده المنتظر جل اهتمامه،

وظهر الزوجان وكأنّهما يعيشان شهوراً من العسل والانسجام وهما بانتظار موعد الولادة التي ستعلن بداية حياة جديدة لهما. كانت أم سالم وبقية نساء القرية يتوافدن يومياً إلى منزل أبي راشد للاطمئنان على عليا وتأمين متطلباتها وتسليتها حتى تنقضي تلك الفترة، كان الجميع يعيشون مشاعر الأمل المتصاعدة كلّما اقترب موعد الولادة، وفي نهاية الشهور التسعة، كان الانتظار قد نضج تماماً مثلما هو حال الجنين الذي بدأت علامات اقتراب قدومه تتكرر بشكل يومي، مما استدعى إشرافاً دائماً من أم عبيد التي حرصت على زيارة عليا في اليوم مرتين صباحاً ومساءً. حصلت أم عبيد على الكثير من سخاء أبي راشد كي تبقى على أهبة الاستعداد ومتفرغة تماماً لزوجته عليا من دون أن يشغل بالها أي موضوع آخر، لهذا أوكل أبو راشد لأحد الرجال مهمة تلبية طلبات أسرة أم عبيد وأبنائها بشكل يومي وكان يحرص على ألا ينقصهم شيء. وبالمقابل اعتبرت أم عبيد أن ولادة عليا بنجاح سيكون لها بالغ الأثر على مهنتها في المنطقة كلها حيث ستصبح ملاذاً للنساء الحوامل أو اللواتي يعانين من الأمراض الأخرى، بهدف الاستشفاء ومعالجة الحالات المستعصية.

لم يعدّ أبو راشد ينام في المزرعة، واختصر فترات خروجه من البيت إلى الحد الأقصى، وكلّما كان موعد الولادة يقترب، كانت شدة الاهتمام بعليا تكبر مع ما يساورها من قلق وترقّب، كان الصبر ينفد رويداً مع انقضاء كلّ

يوم، وفي المقابل يكبر الأمل مرات ومرات. وفي اليوم الموعود استنفر جميع المقربين بعد أن أكدت أم عبيد أن موعد الولادة سيكون خلال أسبوع على الأرجح. في تلك الأيّام السبعة، عاشت عليا حالات لا تنسى من الانفعال والشوق، كانت تبتهل إلى الله أن تقرّ عينها بمولود سليم معافى يملي عليها حياتها بعد طول انتظار، بينما يستعرض أبو راشد الأسماء المفضلة في حال كان المولود ذكراً أم أنثى، وفي المقابل عادت الحياة إلى غرفة الأطفال التي كانت تزورها عليا يومياً وتتفقد مقتنياتها وتطلب من أبي راشد أن يأتيها ببعض الحاجيات، ثم تتذكر تلك اللحظات المريرة التي قضتها باكية في هذه الغرفة خوفا من العقم.

في منتصف الأسبوع الذي حددته أم عبيد لموعد الولادة، كانت طرقات أبي راشد على باب أم عبيد الساعة الثالثة صباحاً، تشير إلى أن شيئاً قد حدث، فالآلام التي عصفت بعليا فجأة دبّت الذعر في نفس أبي راشد فهرع بسرعة يستنجد بأم عبيد التي طمأنته في الطريق إلى أن الأمور طبيعية وهي لا شك لحظة الولادة. وخلال وقت قصير ازدحم البيت بالأقرباء المنتظرين خارج الغرفة بانتظار الخبر السعيد، كانت علامات القلق واضحة على أبي راشد ، يتبعه أبو سالم محاولاً تهدئته وطمأنته، لكن حجم الخوف الذي عاشه أبو راشد لم يكن ليتوقف إلا بعد سماع زغردة أم عبيد قادمة من غرفة عليا معلنة انتهاء حالة التوجس والقلق. هرع أبو راشد باتّجاه الغرفة بينما كانت أم عبيد تفتح الباب معلنة

ولادة بنت جميلة تشبه أمّها بعينين سوداوين وبياض ساحر، لتتالى بعدها الزغاريد التي وصلت أصداؤها إلى بقية أنحاء القرية، في الوقت الذي كان فيه الصبح ينبلج وخيوط الشمس الأولى تتسلل من وراء البحر المغطى بالضباب.

أصبحت سارة قرّة عين أبيها، ومصدر فرح أمها، فمع قدومها استقرت الحياة وعادت إلى مجاريها، كأنّ هذه الطفلة التي رزقا بها، أرسلها الله تعالى لإصلاح حال تلك الأسرة التي كانت مهددة بالتفكك. لقد نشرت الحيوية في البيت وشعر أبو راشد أن هناك شيئاً يعيش ويعمل من أجله، كانت سارة تعني الجدوى بالنسبة لأبيها وأمها، جدوى الحياة وجدوى العمل والصبر والإيمان بقدرة الله على قلب الأمور من حال إلى حال بلحظة واحدة قد لا يتخيلها أحد. عاد أبو راشد إلى عمله واعتنى بمزرعته وتجارته وظهر مشغولاً دائماً بتأمين الحياة الكريمة لأسرته، لقد شعر أنه ولد من جديد مع سارة، لأن كل حياته تبدلت إلى جانب نظرته للحياة وثقته بنفسه وإيمانه الذي أصبح راسخاً لا يتزعزع. هكذا انتشلتهم سارة من قعر المعاناة، وبولادتها جعلتهم ينعمون بالضوء من جديد.

مع الوقت، ألف الناس التغيير الجديد الذي حصل بقدوم سارة، وعاد أبو راشد إلى عمله المعتاد أكثر حماسةً وجهداً، فقد ولد لديه شعور بأن ما يقوم به لن يذهب سدى في الفراغ، فهناك ابنة لابد أن

يؤمن مستقبلها، ومن يدري ماذا ينتظره في المستقبل، فربما رزق بالمزيد من الأبناء الذين يجب تأمين متطلباتهم في العيش الكريم والميراث الذي يحميهم من غدر الزمان. كثرت سفريات أبي راشد وتعددت تجارته وصار اسمه يذكر على مستوى المنطقة. لقد حصد جاهاً وعزاً قل نظيرهما عند غيره من الرجال. وكلّما أعطاه الله ورزقه، هرع إلى الزكاة ومساعدة الناس وأغدق الكثير على عائلته ودلل ابنته سارة ولبى احتياجاتها كلّها. سارت الحياة بشكل وديع وشعرت الأسرة بالاطمئنان بعد سنين من القلق والاضطراب. كان أبو راشد يمسك بيد ابنته سارة ويخرجا للتنزه في البرية، يشرح لها عن النباتات والصخور ومجاري المياه، ويعلمها كي تكتشف حال الطقس، كما يلقي أمامها الأشعار القديمة لتحفظها وتضاهي الأطفال الآخرين من أبناء جيلها. وفي المزرعة، كان على سارة أن تتعلم الكثير عن أشجار النخيل والحمضيات والغاف المحيط بالقرية، حتى نشأت بينها وبين الطبيعة علاقة قوية جعلتها تخرج بشكل دائم لتتأمل الأفق وأحياناً تصل مع أبيها إلى شاطئ البحر، حيث موطن الأسرار والغموض والخير كما يشرح لها أبو راشد. سحر البحر عقل سارة، وصارحت أباها بالهواجس التي تنتابها عندما تتأمل موجه العالي. تُرى ماذا يوجد في الأعماق السحيقة؟ ما مصير السفن التي غرقت منذ أمد بعيد؟ لماذا لا يخاف الصيادون من البحر حتى لو غرق أحدهم في لجته وضاع في عمقه؟ سألت سارة عما يوجد في الجانب الآخر من البحر. هل هناك بلدان

أخرى وما هي أسماؤها ولغات أهلها. كانت تمطر أباها بالأسئلة وهو يجيب بكثير من السعادة والرضا. لم يكن يتخيل أن يسعد بصداقة قوية مع ابنته بهذا الشكل الفريد. حتى إن أمها عليا قالت لها مرة: محظوظ جداً من ينال محبّة أبي راشد بهذا القدر. كانت الأيّام تمضي بسرعة، وتكبر سارة أمام أبيها وأمها كالشتلة اليانعة المحاطة بكثير من الاهتمام والرعاية. عندما نبتت أسنانها احتفوا بها أيما احتفاء ووزعوا الحلوى على أطفال القرية، وعندما مشت خطواتها الأولى لم يتركوا شارعاً ولا مساحة خضراء إلا وزاروها معاً. وسرعان ما شرعت سارة تقوم بزيارات مع أهلها إلى بيت عمها أبي سالم لتلعب مع بناته ويقضين وقتاً ممتعاً. وعندما شبت قليلاً وضعها أبوها في الكتاتيب كي تتعلم القرآن الكريم، فحفظته في وقت قياسي، كما اقتنت مكتبة فيها أمهات الكتب من التراث واللغة والتاريخ، كان أبوها يزودها بها من المكتبات الضخمة في المدينة بعد كلّ تجارة أو سفر. أصبحت سارة مثالاً لبنات القرية في الأدب والأخلاق والعلم رغم صغر سنها. وفي الزيارات التي ترافق فيها أمها إلى الأقرباء والصديقات من نساء القرية، كان الجميع يؤكد أن سارة أكبر من عمرها نظراً لذكائها وثقافتها وحفظها للقرآن الكريم. جمعت سارة المجد من طرفي أبيها وأمها، امتلكت الجمال والأخلاق معاً، مما جعلها مبعث فخر لأهلها لأنّها تفوقت في كلّ شيء وكانت مرجعاً لأصدقائها الذين يطلبون مشورتها ويرتاحون لحديثها ويطلبون أن تقصّ عليهم الحكايات التي

تحفظها من قراءة الكتب. كان الجميع يصفونها بابنة أبيها من شدة تميّزها عن الأخريات.

-3-

كانت الشمس تميل للمغيب، ساحبة جدائلها ببطء فوق الجبال الصخرية المنحدرة بشدة نحو الطريق الذي يربط القرية بالمناطق المجاورة، بينما يسير أبو راشد مع قافلته الصغيرة، باتّجاه المدينة كأنّه في سباق مع الظلام الذي ظهرت ملامحه في الأفق. لطالما سحر هذا المشهد أبا راشد، ولهذا بقي حريصاً دائماً على السفر في هذا الوقت كي يمتع ناظريه بمشهد الغروب وروعة الألوان التي تعكسها الصخور الحادة المتفاعلة مع ضوء الشمس. وعندما تبزغ المدينة من بعيد بأضوائها المتلألئة، تغمر أبا راشد مشاعر مجهولة لا يعرف مصدرها، إنها مزيج غامض من الحنين للمجهول والإحساس بروعة الخلق. وفي كثير من الأحيان، كان أبو راشد يتوقف فجأة على جانب الطريق كي يتأمل مشهداً استرعى انتباهه أثناء السير، وإذا امتلك المزيد من الوقت، لم يتردد في زيارة إحدى الواحات الخضراء القريبة من الطريق، فيسلم على أهلها ويتزود بالماء والتمر الطازج وسط ترحاب كبير من الناس الذين كانوا يعرفونه جيداً، فهو من القلائل الذين سبقهم صيتهم وشهرتهم سمعتهم وأفعالهم التي صارت مضرب المثل في المنطقة.

في ذلك المساء، وصل أبو راشد إلى مضافة صديقه تاجر الأقمشة في المدينة، حيث اعتاد أن يقضي الليلة قبل أن يستيقظ في الصباح الباكر من أجل التسوق وقضاء الالتزامات المالية مع التجار الآخرين. أبو راشد من القلائل الذين يعتبر كلامهم ووعدهم أهم من العقود والكمبيالات التي يوقعها باعة الجملة مع بعضهم عادة. فالرجال يمسكون من ألسنتهم كما يقول الجميع، وخير مثال على ذلك بالنسبة إليهم هو أبو راشد الذي لم ينكث بعهد ولم يخلف بموعد ولم يأكل حراماً، بل كان في كثير من الأحيان يجور على نفسه في المبيع والشراء، مراعاة للآخرين أو اكتفاء بالربح اليسير، فلم يكن الطمع من شيمه، ولا الاستغلال في طرائقه في التعامل.

طرق أبو راشد باب صديقه تاجر الأقمشة، وما هي إلا لحظات حتى استقبله بالحفاوة والتكريم ثم دعاه إلى صدر المضافة حيث اجتمع عدد من التجار والوجهاء يتبادلون الحديث مع القهوة المرة المطبوخة على الفحم المتقد في مدخل المضافة. سيل من الأسئلة تلقاها أبو راشد من الحاضرين عن حال المناطق المجاورة وأخبار الطقس والتجارة بين القرى والسفر عبر البحر بهدف توسيع المبيع والشراء. كان أبو راشد بالنسبة إليهم بنك معلومات متنقل نتيجة خبرته العملية في المناطق التي يحفظ تضاريسها وطرقاتها وعادات أهلها. وقد زاده خبرة موقع قريته القريبة من البحر والتي تعتبر صلة وصل أو جسر

مع قرى الداخل. في هذه الجلسات، لم يكن الحضور يخفون إعجابهم بشخصية أبي راشد ويستشيرونه في كلّ شيء، حتّى إن صديقه تاجر الأقمشة كان يتندر بالقول إن أبا راشد يسرق أضواء المجلس منذ لحظة وصوله، بل إن بعضهم يوقتون زياراتهم للمجلس على مواعيد أبي راشد من أجل الاستمتاع بأحاديثه وسؤاله عن بعض القضايا التي تخص العمل والتجارة في المناطق المختلفة. سهر الجميع حتى ساعة متأخرة في تلك الليلة، وقد أخذهم الحديث بعد تناول العشاء، فجادت قرائحهم بالشعر والسير الشعبية، وكان العديد منهم يطلب وأن يرافق أبا راشد في سفره من أجل التعرف إلى الحياة في الواحات وزيارة بيوت الشعر التي ينصبها البدو في الصحراء، تلك التفاصيل كانت تسحر أهل المدينة وتضفي على الجلسة أجواء من الأساطير التي لم يألفوها في السابق.

لا ينسى أبو راشد أن يحمل الهدايا في زياراته المتكررة للمدينة، فالرجال المواظبون على حضور مجلس صديقه تاجر الأقمشة، صاروا من أصدقائه المقربين، فكانت السلال الممتلئة بمنتجات القرية من المشاهد المألوفة منذ لحظة دخوله إلى المجلس، حيث يهرع الجميع للتساؤل عما جلبه أبو راشد لكلّ منهم هذه المرة. بعد ساعات من تبادّل الحديث والترحاب وتبادّل القصص المختلفة، بدأ رواد المجلس بالمغادرة إثر بعضهم حتى يخلدوا للنوم استعداداً ليوم عمل طويل في

السوق. وعندما فرغ المجلس ولم يبق سوى أبي راشد وصديقه تاجر الأقمشة، كان النعاس قد ظهر على أبي راشد بعد سفرته الطويلة، لكن تاجر الأقمشة أصرّ عليه أن يسهر قليلاً فيخبره بحاله مع ابنته سارة وكيف غيرت حياته، وبالطبع كان هذا الحديث يثلج صدر أبي راشد خاصّة أن صديقه تاجر الأقمشة كان قد نصحه بالزواج من المدينة بشكل سريّ من أجل أن يرزق بطفل لم تتمكن زوجته عليا من إنجابه له. تنهد أبو راشد بعمق وكانت ابتسامته العريضة تشي بكمية السعادة التي يشعر بها عند الحديث عن ابنته سارة التي منّ الله عليه بها بعد انتظار طويل. الحياة بعد الإنجاب تختلف جذرياً. قالها أبو راشد ثم راح يسهب كيف يعامل ابنته سارة ويبني عليها الآمال من شدة ذكائها وحكمتها وأخلاقها العالية، الأمر الذي جعلها قدوة لقريناتها من بنات القرية. استرسل أبو راشد كثيراً بالحديث، فحكى لصديقه عن مشاويره في البرية مع ابنته سارة، وأخبره عن أسئلتها المتكررة والبريئة التي تنم عن ذكاء حاد. كانت عينا صديقه توشك على البكاء وهو يرى السعادة تظهر على وجه صديقه القديم بوجود ابنته الوحيدة. أخبره بأن اقتراحه القديم عليه بالزواج كان بدافع الحبّ والخوف عليه من شدة الهم الذي كان يحمله، وقد قابله أبو راشد بالتقدير لكنّه حمد الله أنّه لم ينفذ تلك الخطوة في ذلك الوقت، متسائلاً ماذا كان سيفعل لو تزوج بامرأة ثانية ثم رزق من امرأته الأولى بابنته سارة؟ فلاشك سيقع في مشكلة خاصّة إذا أنجبت له الثانية أطفالاً هي الأخرى. في كلّ الأحوال، قدر

الله وما شاء فعل. قالها أبو راشد بكثير من الرضا والشكر لله تعالى الذي ترأف بحاله وذلل الصعاب من طريقه في هذه الحياة. تحدث أبو راشد لصديقه عن ازدياد إحساسه بالآخرين بعد انفراج هذه المعاناة عن صدره، أخبره كيف أصبح يعامل جميع أبناء القرية وكأنّهم جزء من أسرته، فلا يستطيع النوم إذا علم بوجود محتاج أو مكروب، إذ سرعان ما يبادر بشكل سريّ دون إخبار أحد إلى معالجة المشكلة ومدّ يد المساعدة بلا منيّة أو انتظار مقابل. كأن ولادة سارة قد طهرته تماماً من خطايا البشر وجعلته يتصرف مثل الصالحين الورعين بالخير وعمل المعروف والتزام الأخلاق. شرح أبو راشد لصديقه عن كمية السعادة التي يشعر بها عندما يبادر لمساعدة الناس. ثم أخبره عن التوفيق الذي يلقاه بعد كلّ مساعدة يقوم بها وعن فرحه بالدعوات التي ينالها من أولئك الأشخاص الذين تقسو عليهم الظروف وتكسرهم المحن.

كلّما أسهب أبو راشد بالكلام، ازداد صديقه تاجر الأقمشة اعتزازاً به. كان الصديقان من طينة واحدة، لهذا شاء القدر أن يجمعهما بتلك العلاقة الوطيدة التي صارت مضرباً للمثل بين أبناء السوق والتجار. تأخّر الوقت والرجلان يتبادلان أطراف الحديث، وكان أبو راشد بحاجة لهذا النوع من البوح الشفاف لصديق يفهمه ويعرف خباياه جيداً. هذا الحديث جعل الاثنين يشعران بالاطمئنان إلى أن الحياة لا يمكن أن تخلو من الرجال العظام، وأن عمل الخير لا يمكن أن يذهب سدى. في هذه اللجة من

المصارحات الطويلة، شرع تاجر الأقمشة بالبوح لأبي راشد عن همومه مع أبنائه الذين سافروا جميعاً للخارج وبات مع زوجته وحيدين في هذه الدنيا لا يؤنسهما سوى استعادة الذكريات القديمة عندما كان الأبناء أطفالاً.

كان تاجر الأقمشة يحلم دائماً أن يعود أبناؤه إليه. ليرى أحفاده ويشهد نجاحاتهم في قريتهم التي تحتاجهم كثيراً، لكن للأسف لم تكن فرص العمل توازي طموحاتهم وأحلامهم ، فظلوا بعيدين في الخارج وكان على الأبوين أن يقوما بزيارة سنوية متنقلين بين عدة بلدان كي يتمكنوا من رؤية أبنائهم الثلاثة الذين لا يلتقون إلا في هذا الوقت من العام. يبدو أن الإنسان لا يمكن أن ينال السعادة كاملة يا صديقي. قالها تاجر الأقمشة لصديقه أبي راشد بكثير من الحسرة، فقد تقدم به السن فهو يكبر أبا راشد بأكثر من عقد من السنوات. حاول أبو راشد كثيراً تهدئة روع صديقه، فأخبره أن الأبناء لا يمكن أن ينفصلوا عن جذورهم لكنهم محكومون بمستقبلهم المختلف عن حياة آبائهم وأجدادهم. إنّها سنة الحياة ولابد أن يأخذ كلّ إنسان دوره المقنع والمنتج في المجتمع وهذا لابد أن يصبّ في المكان الذي أراده الأب المربي الفاضل الذي أنجز جيلاً سيكون مثار اعتزازه على مرّ الزمن.

في تلك الليلة، ظهر الإثنان وكأنّهم قد أخليا الوفاض تماماً، ففرغت جعبتيهما من الشكوى وشعر كلّ منهما بتعاطف الآخر معه، ذلك البوح

كان له أثره الايجابي في نفسيهما فأحسا بالراحة، ليبدأ الحديث يأخذ مجالات أخرى تتصل بالعمل والتجارة والزيارات التي سيقومان بها في اليوم التالي. كان التعب يظهر أشد وضوحاً على وجه أبي راشد الذي تكبد سفراً طويلاً يحتاج بعده للراحة والنوم، لكن ما شفع لصديقه التاجر، تعلّقه به ومحبته الكبير له، وهو ما أدركه أبو راشد دائماً خلال زياراته وجعله ينزل عند مطلب صديقه التاجر حتّى لو تحمل بعض العناء الزائد. آخر فنجاني قهوة شربهما الصديقان، كانا الأشد مرارة بين الفناجين الكثيرة التي ارتشفاها، فنار الموقد كانت قد اشتدت تحت مصب القهوة العربية فاشتدت كثافتها وأصبحت مرة وشهية، مثل الأحاديث والمكاشفات التي تبادلها الطرفان بكثير من الحبّ.

كان صياح الديكة من بعيد، يشير إلى قرب انبلاج الصباح، لكنّ أبا راشد استيقظ أبكر من ذلك بكثير كعادته عندما ينام خارج المنزل، وقد توضأ وأدى صلاة الصبح وابتهل إلى الله أن يلهمه الصحّة والعافية مع أسرته الصغيرة كي يتمكن من إسعادها عبر تأدية دوره في هذه الدنيا المؤقتة والزائلة. في هذه الأثناء، مضى وقت قصير فقط حتى استيقظ صديقه تاجر الأقمشة على صوت جلبة أبي راشد وهو يزرع المضافة جيئة وذهاباً بعد انتهائه من الصلاة. كانت الخطة التي وضعاها خلال الليل تقضي بأن يخرجا من المنزل باكراً باتّجاه سوق الأقمشة الرئيسيّ في المدينة حيث يمتلك صديق أبي راشد محله الشهير هناك. ثمّ الانتقال بعدها إلى سوق

الأغذية، لشراء قائمة الاحتياجات التي كتبها أبو راشد في دفتره الخاص. وبينما كان الاثنان يغادران البوّابة الرئيسية للمنزل، ظهرت المدينة وقد سبقتهما في الانهماك بأعمالها منذ زمن طويل. هذه المدينة لا تنام أبداً. قال أبو راشد لصديقه وهما يسيران باتّجاه مركز المدينة.

-4-

استغلت عليا أيّام سفر زوجها بزيارة قريباتها وصديقاتها في القرية، وكانت سارة الرفيقة الدائمة لأمها أينما ذهبت. لقد شهدت عليا انقلاباً جذرياً في حياتها بعد أن رزقها الله بابنتها سارة، فأصبحت أكثر رصانة وهدوءاً كما تحسنت علاقتها بأبي راشد فصار الحبّ عمادها الأوّل. حاولت عليا تعليم ابنتها كلّ الخصال الحميدة وجعلها تتعرف إلى الناس وتصبح واثقة من نفسها قادرة على التصرف الحسن في أحلك الظروف، ولذلك عمدت إلى اختبارها وإخضاعها لامتحانات صعبة حتى تأخذ العبر من التجارب، علمتها كيف تكون امرأة متميزة برقتها وقوتها في آن معاً، ومن كثرة الاختلاط مع نساء القرية والاستماع إلى أحاديثهن، ظهرت سارة أكبر من سنها بكثير، وقد ساعدها في ذلك ثقافتها الجيدة وقراءتها بشكل دائم للكتب وسماعها لحكم والدها وخبرته في الحياة. كانت سارة محصلة تجارب الأب والأم نتيجة تركيزهما على تربيتها بالشكل الأمثل. ولكم ظهرت عليا معتدة بنفسها

وهي ترى ابنتها تحقق النجاحات تلو النجاحات، في المدرسة والحياة الاجتماعية والاعتماد على النفس.

جمعت عليا علاقة طيبة بأم سالم، زوجة أخ أبي راشد، وكانت الاثنتان تتبادلان الزيارات وتنظمان لقاءات للنساء في القرية يتداولن فيها شؤونهن المختلفة. إلى جانب ذلك نشأت علاقة طيبة بين بنات العم، وأصبحت سارة من الصديقات المقربات لمريم ابنة عمها التي توازيها في العمر، وطيلة فترة طفولتها، عشقت سارة بيت عمها الواسع ذي الفناء الكبير حيث تلعب مع مريم وأخواتها وتقضي أوقاتاً ممتعة في العطل وأوقات الفراغ. كان من حظ الأخوين أبي راشد وأبي سالم، أن زوجتيهما كانتا على تفاهم ووئام قل نظيرهما، وهو ما أراحهما من مكابدات النساء وقصصهن الصغيرة التي كثيراً ما أودت بعلاقات الأقرباء وحولتهم إلى أعداء. لقد انتقلت تلك العادات والخصال الحميدة التي تحلت بها عليا وأم سالم إلى البنات فأصبحن متزنات حكيمات في تصرفاتهن ومنسجمات مع بعضهن إلى أبعد حد.

لن تنسى نساء القرية ما تفوهت به سارة ومريم عندما استمعتا لقصّة إحدى النساء ومعاناتها مع زوجها. وهي أحاديث تثار عادة في هذه اللقاءات من أجل أخذ الرأي من أهل الخبرة من كبيرات السن العارفات بأحوال الرجال وكيفية التعامل مع أمزجتهم المتقلبة. كانت المرأة

تشكو بحرقة تصرفات زوجها غير المبالية بها، فهو لا يهتم بأمرها ولا يعاملها بودّ حتى إنها أصبحت تعاني شيئاً من الفقر العاطفي بسبب سلوكه المتعجرف. بعد انتهاء تلك المرأة من شكواها، أدلت كل امرأة برأيها وقدمت نصيحتها بناء على ما شهدته في حياتها الخاصّة وحياة المقربين منها. امرأة نصحتها بأن تذهب لإحدى النساء المعروفات بكتابة التعاويذ، فهي الكفيلة بتليين قلب الزوج وجعله أكثر لطفاً ووداً، وأخرى نصحتها بالهجران والمعاملة بالمثل كي يقتنع أنه على خطأ ويلقى نتائج أفعاله الشائنة. امرأة أخرى نصحتها بشكوى أمرها إلى والد الزوج الذي من شأنه أن يتصرف مع ابنه وينصحه بتغيير سلوكه مع زوجته. تتالت الآراء وكانت كلّها تصبّ في المكان نفسه تقريباً، بينما كانت مريم وسارة تجلسان على مسافة قريبة تستمعان بإصغاء للحديث بعد أن شدت انتباههما مجموعة الآراء التي لم تلق إعجابهما. عندئذ طلبت سارة من أمها الإذن بالحديث ولما سمحت لها سألت سارة المرأة عن سلوكها مع زوجها وهل هي تعتني به بالقدر الكافي وتحاول أن تنشىء معه حوارا بهدف التفاهم، فلربما كانت هناك نقطة تجعل الزوج يشعر بالنفور وعدم الرضا. أما مريم فتحدثت عن ضرورة المصارحة بين الزوجين حول كل ما يقلقهما حتى لا تتفاقم الأمور وتصل إلى طريق مسدود. كانت النساء الحاضرات في هذا اللقاء النسائي، مندهشات وهن يستمعن إلى آراء سديدة من فتاتين تجاوزتا العاشرة بقليل. حتى عندما تحدثت سارة عن مثالب الشكوى إلى والد الزوج واحتمال أن يحدث ذلك ردة فعل

سلبية عند الزوج ويحصل مالا تحمد عقباه، أظهرت النساء تأييدهن بقوّة لهذا الرأي الذي نطقت به سارة ابنة أبيها وأمها.

كانت سارة تنقل إلى ابنة عمها مريم جميع خبراتها مع أبيها، فتشرح لها أنواع النباتات وأوقات هطول الأمطار واحتمالات حدوث السيول وتشكل الأفلاج والعلاجات التي تقدمها الأعشاب البرية، وعندما كانت مريم تفاجىء والدها ببعض هذه المعلومات أثناء لقاء أفراد الأسرة على مائدة الطعام أو أثناء السمر عند المساء، كان أبو سالم يبتسم برضا ويسأل مريم إن كانت أتت بهذه المعلومات من ابنة عمها سارة، التي بدورها حفظتها بكلّ أمانة عن أبيها، فهو يعرف أخاه جيداً ويدرك طبيعته نظرته إلى مختلف القضايا، حينها كانت مريم تخجل وتخبر أبيها أنها تتحاور مع سارة دائماً وتتقاسمان المعلومات بشكل مستمر. وعندما تقول مريم إن أبيها وعمها من أكثر الناس خبرة وعلماً في هذه القرية، كان أبو سالم يضحك من كل قلبه ويثني على مريم واصفاً إياها بصاحبة الفطنة والبداهة التي لا يمتلكها سواها.

لم تسلم عائلتا أبي راشد وأبي سالم من الحسد، بسبب حالة التوافق والانسجام التي تعيشها الأسرتان. لكن حكمة الأخوين وزوجتيهما جعلت من هذه الأمور مجرد تفاصيل صغيرة لا تؤثر على الخط العام الذي انتهجته الأسرتان في حياتهما وهو التربية الصالحة واستيعاب

الآخرين والتركيز دائماً على المعرفة والأخلاق، وكانت كلمات أبي راشد القائلة بأن آراء الرجال وأفعالهم ليست بمستوى واحد، وبأنه لا يمكن أن نعامل كل الرجال بنفس القيمة والقدر، بمنزلة الحكمة التي يستشهد بها الجميع أثناء ضرب الأمثلة عن أحوال الناس.

في أيّام العطل والمناسبات، كانت الأسرتان تخرجان إلى المزرعة في زيارة تستمر طيلة النهار، حيث توقد النار وتنشل النساء بإعداد الطعام بينما البنات يلعبن بين أشجار النخيل والحمضيات ويجرين في أفياء المزرعة بحثاً عن النباتات البرية التي تستخدم في العلاج أو تضاف إلى المشروبات الساخنة كمنكهات. ولم تقتصر مشاريع العائلتين على زيارة المزرعة، فبعد إلحاح من البنات على أبي راشد وأبي سالم، يوافق الأبوان على القيام برحلة إلى المدينة، ويبدأ الجميع بتجهيز مستلزمات المشوار ويضعون مخطط الرحلة وأماكن الاستراحات على الطريق مع أوقات تناول الوجبات والأماكن التي لابد من زيارتها في المدينة. وكان من اللافت أن تطلب البنات زيارة المتحف الأثري والقلعة القديمة، والذهاب إلى شاطئ البحيرة الشهير برصيفه الطويل المخصص للمشاة. بالإضافة إلى سوق المكتبات وسوق ألعاب الأطفال. في هذه الرحلات التي تحدث كل فترة طويلة نسبياً، كان أبو راشد يقول إن أجمل ما في الرحلة هو الطريق، ويطلب من البنات التمتع بمنظر الغروب والجبال الصخرية والرمال الممتدة وشجر الغاف وطيور الحجل التي يسميها رفيق الطريق.

كان هناك جانباً شاعرياً في شخصية أبي راشد يضفي على اجتماعات العائلة جوّاً فريداً، حتى العثور على أنواع مدهشة من الصخور بات من اهتمامات أفراد الأسرة، لقد علمهم أبو راشد حسن التمتع بالجمال واكتشافه بشكل صحيح. كان هناك على الدوام جانب نظري يتعلق بالدروس والإرشادات التي يسمعها الأطفال من الأهل، وآخر عملي تطبيقي يرونه فعلياً على الأرض، هذا كلّه ترك أثراً بالغاً في شخصيات البنات قبل أن يدخلن في تجارب جسام تنتظرهنّ في المستقبل.

عُرفت القرية بمجلسها الذي يعقد يومياً عند المساء في منزل أبي سالم بحضور رجالها وضيوفها من المناطق المجاورة. كان الجميع يرون في المجلس متنفساً بعد نهار من العمل الشاق في المزارع أو الصيد في البحر أو التجارة. في ذلك الاجتماع كانت تثار القضايا الهامّة التي تخصّ الأهالي والنوادر التي تروّح عنهم وفيه يقررون مشاركة القرى الأخرى في أفراحها وأتراحها، فينطلق وفد يمثلهم محملاً بالهدايا أو المساعدات كنوع من المشاركة والتضامن في تلك المرحلة التي كانت تسودها الحياة البسيطة غير المعقدة في مأكلها ومشربها وعلاقاتها الاجتماعية. حرص الوجهاء والعمال والصيادون والمزارعون على حضور معظم تلك الجلسات وقد رأوا فيها ختاماً طيباً لنهار من

التعب، ولم تكن يخلو المجلس من الظرفاء الذين يزينون المجلس بتعليقاتهم وقصصهم التي يخترعونها للخروج من الرتابة والجدية التي تشغل بال الرجال تحسباً للكوارث أو استعداداً للمناسبات التي تتطلب تضافر الجهود الماديّة والنفسية بين الأهالي.

كانت البيوت القديمة، محاطة بفناء واسع يتوسطه المنزل وفي الجهة المقابلة يقع المجلس أو المضافة التي تتسع مساحتها ومستواها تبعاً لثراء الشخص أو مكانته الاجتماعية. وعلى الجانبين تنتشر أشجار النخيل وبعض المزروعات التي تعتبر عنصراً ضرورياً في البيت.

قصص البحر كان لها حصة كبيرة من وقت المجلس، وهي حكايا ميزت القرية بموقعها الفريد المطل على الساحل والداخل معاً. في هذا الاجتماع يتباهى الصيادون بمقارعتهم للأمواج واصطيادهم الأسماك صعبة المنال أو الغوص إلى القاع بحثاً عن اللؤلؤ، ولم يكن من المستبعد أن يسترسل البعض بالخيال فيضيفوا البهارات بشكل فاقع إلى قصصهم كنوع من التغني ببطولاتهم والجرأة التي تحلوا بها أثناء المخاطر، ليأتي هنا دور الظرفاء الذين يزيدون شيئا من الطرافة التي تشير إلى أن الصياد قد تجاوز المنطق في قصته، فيضطره ذلك إلى إعادة ضبط القصّة وفق قواعد المنطق المألوف. لقد أضاف البحر نوعاً مختلفاً من الفلكلور ميزت القرية عن المناطق الأخرى، وفي مقدمتها غناء الصيادين للبحر وعودتهم بالرزق

الوفير أو رثائهم المحزن عند الكوارث، وفردهم للشباك على الشاطئ ومن ثم ترتيبها بشكل منتظم قبل الصعود إلى القوارب التي ستشق عباب الموج. ثقافة كاملة نشأت بعامل الاحتكاك مع البحر، وبعض القصص تحولت إلى جزء من التراث الذي يتداوله الأهالي في اجتماعاتهم العائلية أو في لقاءات المجلس. ومع الوقت درجت في المجلس تراتبية في الحديث يلتزم بها الجميع، فالأولوية تكون للقضايا الهامّة التي تخصّ الأهالي ومن ثم يفرد كل فرد ما في جعبته، الصيادون والمزارعون والتجار وكبار السن وبعض الشباب الذين كانوا يحبون الحضور من أجل الاستمتاع بتلك القصص الفريدة وامتلاك الخبرة من الرجال المجربين.

حتى وقت بعيد، ظل حضور المجلس يتذكرون قصة الصياد الذي ركب على ظهر الحوت بعدما صعب عليه اصطياده بالشبكة، تلك القصة التي عدلها أحد ظرفاء القرية لتصبح بهذا النحو بعد أن استرسل الصياد بالحديث عن اصطياده سمكة ضخمة جداً من سمك الكنعد (التونة) التي لا تقترب من الشواطئ عادة، وقد كانت ثقيلة إلى درجة صعب سحبها في الشباك بسبب الحجم الضخم وثقل الوزن، حيث أوشكت على إغراق القارب بمن فيه أو جره إلى عرض البحر بعيداً عن الشاطئ، الأمر الذي اضطر ذلك الصياد إلى القفز في الماء ومن ثم توجيه عدة طعنات للسمكة الضخمة التي سرعان ما خضب دمها سطح الماء باللون الأحمر، ولم يكن من حل أمامه إلا تقطيعها في الماء وانتشالها على

دفعات إلى القارب، الأمر الذي دفع أحد الظرفاء المستمعين للقصة أن يعقب بالقول إنه بالفعل رأى الصياد صاحب القصة يعتلي ظهر سمكة ضخمة تسبح مسرعة باتّجاه عمق البحر بينما كان يقوم بطعنها مرات متكررة بخنجره الحاد، لينفجر بعدها الجميع بالضحك وتبادل الغمزات حول المبالغات الكثيرة التي أضافها الصياد للقصة الحقيقية.

قصص البحر كانت جزءاً من حكايات أخرى تقال في المجلس، كقصص السفر والتغلب على الضواري والعثور على الماء بطريقة مبتكرة غير متوقعة في الأراضي الزراعية، فلم يكن غريباً أن نسمع من امرىء امتطى ضبعاً وجاء به أسيراً إلى ساحة القرية. أو آخر ولدت ناقته جملاً صغيراً برأسين أو رجل زائدة. تلك القصص كانت بمنزلة الترفيه عن النفس وقد احتاجها المجلس كاستراحات من أجل التسلية وتطعيم الجوّ بشيء من الفكاهة بعد قضاء وقت طويل في الجدية والنقاش حول القضايا الهامة. كثيراً مما كان المجلس يبقى مفتوحاً لساعة متأخرة من الليل، بحضور رجال قلائل يحبون السهر أو راقت لهم قصص المجلس واسترسلوا بها، الأمر الذي قد يدفع بأبي سالم أحياناً إلى الاعتذار والذهاب للنوم نظراً لالتزاماته الصباحية بينما يتابع البقية جلستهم حتى ساعات الصباح الأولى ويبقون حريصين على إيقاد النار كلما خبت وتسخين مصبات القهوة العربية المرة التي تبقى رائحتها عابقة في الأجواء. كانت أضواء المجلس وأصوات الرجال الواصلة إلى الطريق

المجاور مع رائحة القهوة، من علامات الاطمئنان لدى الأهالي، حتى إن القريبين من بيت أبي سالم حيث يعقد المجلس، كانوا يستأنسون بهمهمات الرجال وأصواتهم ويشعرون بالوحشة إذا ما غابت لسبب أو آخر. بل إن بعضهم كانوا يتشاءمون إذا ما مروا ليلاً من جانب بيت أبي سالم فوجدوا أنوار المجلس مطفأة على غير العادة، لأن الرجال نال منهم التعب مبكراً ففضلوا الخلود للنوم قبل وقتهم المعتاد. المجلس كان علامة على جريان الحياة بشكل طبيعي في القرية، وقد أصبح جزءاً من معالمها الأساسية فلم يمكن تخيل القرية من دون قصصه وحكايات وقضايا الهامة المطروحة على الطاولة بشكل يومي.

من الطقوس المميزة التي سادت المجلس، حرص الحضور على تبادل الضيافات كل حسب ما يستطيع، فالتجار يعودون بالحلوى من المدينة، والصيادون يخصون المجلس بأنواع نادرة من الأسماك التي تطبخها النساء في وقت لاحق ليتناولها الرجال في المجلس، أما المزارعون فيحملون السلال المليئة بالثمار المقطوفة حديثاً، الأمر الذي كان يدعم بشكل دائم تناول الخبز والملح بشكل جماعي، ويجعل من لا يحفظ تلك الميزة خارجاً عن العادات والتقاليد. لهذا كانت التجاوزات نادرة في القرية، فكل القضايا يمكن حلها أثناء اجتماع الرجال الذين يصونون الخبز والملح ولا يقعون في الموبقات التي كانت كافية لاستبعاد أي شخص والنظر إليه بازدراء إذا ما ضل الطريق. تمكن المجلس عبر

اجتماعاته المتكررة عبر سنوات طويلة، من إبرام عقد غير مكتوب بين أبناء المجتمع يتضمن مجموعة من الأعراف التي لا يمكن الانزياح عنها وقد كانت بالفعل بمنزلة ضمانات للعيش المطمئن والمستقر بين أبناء القرية. وإذا ما تفاقم خلاف ما أو تعددت وجهات النظر والآراء، كان الحسم فيها لأبي سالم وأبي راشد اللذين كانا بآرائهما السديدة ينهيان الخلافات ويضعان النقاط على الحروف في كل قصة تتعدد فيها الاحتمالات، وقد كان وجودهما معاً أو حضور أحدهما على الأقل ضمانة للمجلس حتى لا يضل الطريق ويفقد الغاية من انعقاده، فالقرية كانت بحاجة دائم إلى قرار حاسم ورأي سديد يدعمه صاحب مال قادر على تحمل المسؤولية وصرف مستحقاتها من جيبه الخاص ومن تبرعات الحاضرين إذا ما رغبوا في ذلك وهذا أمر يظهر بشكل واضح أثناء الملمات والمصائب التي يمكن أن يتعرض لها أي فرد من أبناء القرية. كان المجلس بوصلة القرية وعامل أمانها واستقرارها.

-6-

خيم الظلام على القرية وساد السكون مبكراً في تلك الليلة، ولم يمض وقت طويل حتى بدأ رواد المجلس بالمغادرة بعد أن ارتشفوا القهوة العربية وتداولوا بآخر الاخبار. كان عدد الرجال قليلاً، ففي هذا الوقت من العام تنشط الأعمال الزراعية والتجارية وينهمك الجميع بمتابعة

مصالحهم من أجل تأمين المؤونة والاحتياجات الأخرى التي تثقل كاهل أرباب الأسر فيحاولون استدراكها قبل بدء موسم الشتاء. كان أبو راشد في الطريق عائداً من المدينة باتّجاه القرية، ويحاول أن يسرع من أجل الوصول مبكراً إلى المنزل قبل أن تنام زوجته عليا وابنته سارة. أراد أن يكحل عينيه برؤية سارة التي اشتاق إليها بعد غياب يومين كاملين في المدينة، كما أحب أن يقدم الهدايا لزوجته عليا التي تبوأت مكانة عالية في قلبه منذ اللحظة التي ولدت فيها ابنته الوحيدة. كان أبو راشد يردد القصائد التي طالما سحرته بمعانيها العميقة:

أناظر في عيونك وأبتسم
وتبقى ساكنن في وسط عيني
والله إنك في فؤادي مرتسم
يا بعد عمري ويا أجمل سنيني
ناقش حبك على قلبي وسم
كما صديت أطيافك تجيني

شعر أبو راشد بالشوق إلى زوجته عليا يجتاحه بقوّة، وتذكر أيّام مراهقته الأولى عندما كان ينظر من بعيد إليها دون أن يتجرأ على مصارحتها بحبه الكبير. ندم كثيراً على لحظات الغضب التي انتابه بسبب موضوع الإنجاب قبل أن يرزقه الله بابنته سارة، وتذكر كيف كان يقضي فترات طويلة في مزرعته وينام بعيداً عن المنزل بسبب ضيقه الشديد. قال في نفسه

بكثير من الأسف، لو أنني كنت حليماً وصبوراً بشكل أكبر لما سببت المعاناة لعليا بلا داعٍ لأن فرج الله كان قريباً وأنا من تسرعت ولم أعد أطيق الانتظار. كان أبو راشد يردد الأشعار التي تذكره بأيام عشقه الأولى، وعندما لاحت أضواء القرية من بعيد، خفق قلبه بشدة وشعر أنه عاد إلى يفاعته الأولى، فكر طويلاً في كيفية تأمين حياة مريحة لابنته تحميها من قسوة الظروف التي يحسب لها ألف حساب. كانت أفكار أبي راشد تتفاعل، ولم يعد يلحق بوابل التصورات والأحلام التي تنتابه بشكل لم يسبق له مثيل في السابق. شعر بالامتنان الكبير لله سبحانه وتعالى على النعمة التي وهبه إياها بولادة ابنته سارة، وعندما شعر أن خيالاته قد تجاوزت الحدود، حاول أن يهدىء من روعه قليلاً وهو يوشك على عبور مدخل القرية حيث هواء البحر ظهر واضحاً والنيران الخافتة في المزارع على الطريق، تؤكد أن الفلاحين لم يناموا بعد. كانت منازل القرية تتكىء على أكتاف بعضها كأنها تتهيأ للاسترسال للنوم بعد يوم من التعب، وكلما اقترب من منزله شعر أبو راشد بقلبه يزداد خفقاناً وقوة، أضواء مجلس القرية في بيت أخيه أبي سالم كانت مطفأة، والطرقات فارغة إلا من بعض الكلاب الشاردة التي تبحث عن المأكولات المرمية في الشوارع . شعر أبو راشد برغبة في معانقة جميع أبناء القرية تقديراً لوقوفهم معه طيلة السنوات التي خلت، وتمنى لو امتلك المال الكافي حتى ينشىء لهم المشاريع ويوفر لهم أسباب الحياة الرغيدة، كانت هناك طاقة كبيرة من الحب تشتعل في قلبه ولا يعرف كيف يوزعها

على الناس. وعندما اقترب من باب منزله الكائن على أطراف القرية، شعر أن جميع الهواجس قد هدأت ولم يبق سوى هاجس زوجته وابنته سارة. أخيرا وصل بيته وهو يبتهل أن تكون الزوجة والابنة مستيقظتين ولم تخلدا للنوم بعد، وبالفعل كانتا تفتحان الباب مرحبتان بقدوم أبي راشد بعد انتظار طويل أمضيتاه منذ العصر حتى ذلك الوقت المتأخر من المساء. كان جلّ ما يشبع حنين أبي راشد أن تركض سارة نحوه وهو يفتح البوّابة الرئيسية للمنزل ثم تلقي نفسها بين ذراعيه هو محمل بعلب الهدايا التي تحبها. كان يضحك من كل قلبه ويشبع شوقه بتلك اللقطات العاطفية التي تهز قلبه من الداخل.

دخل أبو راشد المنزل وسط حفاوة كبيرة من زوجته عليا وابنته سارة اللتين أغرقتاه بالأسئلة حول سبب تأخره حتى ذلك الوقت، فكان يشعر بالرضا وإشباع الغرور عندما يرى علامات القلق عليه ظاهرة في عيونهما التي أصبحت أعز ما يملك في الدنيا. قضى أبو راشد وقتاً لابأس به مع سارة قبل أن يقنعها بأن الوقت تأخر ولابد أن تخلد للنوم من أجل الاستيقاظ باكراً وإكمال الحديث حول رحلته المليئة بالأحداث المثيرة. كان إبريق الشاي يغلي بهدوء مع أعواد القرفة التي يعشقها أبو راشد كثيراً، بينما تستسلم سارة لثقل جفونها وتغرق في نوم عميق قرب أبيها وأمها بعدما رفضت النوم وحيدة في غرفتها. تحدث الزوجان مطولاً عن سارة ومستقبلها المنتظر، ثم كشف أبو راشد ما ينتابه من هواجس لزوجته

عليا، وكيف يفكر في تطوير عمله وتوسيعه بشكل يؤمن المتطلبات الكثيرة التي يحتاجها المنزل إلى جانب انشغاله بالتفكير بتأمين مستقبل سارة بشكل لائق يحميها من جور الحياة. كانت عليا تستمع إلى زوجها وتوافقه الرأي بهز رأسها عند كل كلمة ينطق بها. تحدث أبو راشد لعليا عن صديقه تاجر الأقمشة وكيف أصبح من كبار التجار بسبب عمله في المدينة حيث السوق الواسع وعدد المستهلكين الكبير، وأخبرها بأنه يفكر بتوسيع نشاطه من أجل الحصول على مكاسب تجعله يشعر بالأمان في المستقبل. كان أبو راشد متعلقاً بحياة القرية، لذلك لم يوافق على عرض صديقه تاجر الأقمشة بالانتقال للمدينة والعيش فيها من أجل أن تتوسع تجارته ويصبح على اتصال مباشر مع مراكز العمل الرئيسية. تحدث أبو راشد عن الأفكار التي تراوده حول الانتقال للتجارة عبر البحر عبر نقل البضاعة المحلية إلى الأسواق الخارجية والعودة ببضاعة مرغوبة في القرية والمناطق المجاورة. كان يسترسل بالكلام بينما تتثاءب عليا طالبة منه تأجيل التفاصيل حتى الصباح لأن الوقت تأخر ولم ينل قسطاً وافراً من الراحة بعد سفره الطويل، لكن أبا راشد سرعان ما يطلب منها التريث قليلاً ويأتيها بفكرة جديدة ثم يطلب رأيها بكثير من الحماس والتفاؤل. تلك الحيوية كانت نادرة عند أبي راشد، وقد لاحظت عليا حجم الاندفاع الكبير الذي يحكمه فطلبت منه أن تتم دراسة كل فكرة بشكل هادئ ومنطقي حتى يحدد الخيارات السليمة، لكنها كانت تخفي رضاها عن نفسها وقد نالت تلك المكانة الكبيرة عند

أبي راشد الذي راح يستشيرها بكل شيء، كان ذلك بمنزلة التعويض لها عن سنين القلق والألم التي سببها عدم الإنجاب. لقد شعرت بالفخر والحب وتمنت لو تأخذ أبا راشد بين ذراعيها وتخبره بحجم الحب الذي تحمله له. ليلة نادرة قضتها العائلة كانت مليئة بالأحلام والتفاؤل والإصرار على تغيير الواقع وتطويره باتجاه حياة مثلى مليئة بآمال يحاول كل منهما تحقيقها رغم الصعوبات.

-7-

مضت أيام لم ير أبو سالم أخاه أبا راشد، فانتابه القلق وخشي أن يكون هناك مانع جعله يغيب عن حضور المجلس أو زيارته في المنزل والسؤال عنه، فهو يعرفه جيداً ويدرك أن وراء هذا الغياب أمر يشغل باله ويستولي على تفكيره وذلك من طباع أبي راشد الذي كثيراً ما ينفرد بنفسه في مثل هذه الحالات استغراقاً في التفكير والتمحيص. عساه خيراً، قالها أبو سالم في نفسه ثم غادر البوابة الرئيسية للبيت متجهاً إلى منزل أخيه عوضاً عن ضرب الأخماس بالأسداس على هذا النحو. دقائق قليلة وكان صوت أبي سالم وهو ينادي أمام البيت، كافياً لأن يدفع سارة للجري باتجاه عمها الذي تحبه كثيراً يتبعها أبو راشد الذي كان يقول في نفسه: أعلم أنك ستأتي. كان الوقت قبل العصر بقليل، وشمس فبراير اللطيفة تحفز رغبة الناس في التنزه والسير باتجاه البرية

استغلالاً لهذا الطقس المناسب. جلس الاثنان وانشغلت عليا بتجهيز القهوة وهي تبدي ارتياحاً بالغاً لهذه الزيارة التي تأمل أن تهدىء من روع أبي راشد وتلجم أفكاره المتفجرة مثل بركان لا يهدأ، فتأثير أبي سالم على أخيه كبير جداً وفي كل الأحوال سيكون قادراً على إلقاء المشورة ونصحه بالخير فيما يفكر فيه من مشاريع. تحدث الاثنان وهما يرتشفان القهوة عن الزراعة والتجارة وأحوال أهل القرية، وتساءل أبو سالم عن سبب غياب أخيه لعدة أيام بشكل مفاجئ لم يخبره قبلها إن كان مسافراً أو مشغولاً بعمل ما في المزرعة، لكن أبا راشد فضل أن ينطلق الاثنان إلى الخارج في زيارة إلى البرية مشياً على الأقدام حيث قريحة المرء تصبح مفتوحة وأفكاره تتداعى بشكل يسير من دون أن يقاطعهما أحد. مشى الأخوان سالكين الدرب الترابي، ثم انعطفا متوغلين في المساحات المفتوحة التي اعتادا زيارتها واللعب فيها أو التنزه منذ أن كانا طفلين. صارح أبو راشد أخاه عن الهواجس التي تنتابه حول المستقبل، وشرح كمية القلق التي يحملها بسبب تبدلات السوق والأوضاع المالية ومستقبل ابنته سارة التي يرغب أن تعيش حياة كريمة لا ينقصها شيء فيها. كان أبو سالم يصغي باهتمام دون أن ينطق بحرف واحد، بينما يسهب أبو راشد بالحديث عن ضرورة افتتاح مشروع جديد أو تجارة مختلفة تدرّ مرابح جيدة تتيح له تحقيق ما يفكر فيه من ضمانات للمستقبل. تحدث أبو راشد عن تجار المدينة والصفقات الكبيرة التي

يعقدونها وتعود عليهم بمرابح وفيرة لا يمكن أن تتحقق في القرية ذات الاقتصاد البسيط. ثم انتقل للكلام عن الاستيراد والتصدير وسمّاه بمنجم الذهب الذي يعود على صاحبه بالكثير من المرابح نتيجة فارق الأسعار وحاجة الأسواق المجاورة لأنواع مختلفة من البضاعة. وعندما طلب أبو راشد من أخيه أن يعطيه رأيه فيما سمع من هواجس وأفكار، كان عقل أبو سالم قد امتلأ تماماً من كثرة المشاريع التي تحدث عنها أخوه وكان بعضها غير مترابط ولا منطقي، لكن كان من الواضح أن أبا راشد مزدحم جداً وتكاد أفكاره تهيم بلا اتجاه مثلما يهيم الاثنان في مساحات البرية المفتوحة بلا وجهة يمشيان إليها. كانت الأرض قد ارتوت من المطرة الأخيرة التي حصلت منذ أيام، وإثرها تولت الشمس مهمة إنبات البذور البرية المنتظرة تحت التربة بفارق الصبر لتطل بأصابعها الطرية مزينة الصخور والمنحدرات باللون الأخضر. تنهد أبو سالم قليلاً ثم راح يشرح لأخيه ضرورة التريث في اتخاذ قرارات بهذا الشأن المصيري الذي يلزمه دراسة مستفيضة لأن رأس المال الذي تتطلبه هذه المشاريع كبير جداً، ولا مجال للخسارة التي ستعيده سنين طويلة للوراء. كان من الصعب على تجار القرية مجاراة تجار المدينة الكبار، أولئك الحيتان أصحاب الميزانيات الضخمة كانوا قادرين دائماً على تجاوز مفاجآت السوق وكساد البضاعة أو تبدل الأسعار، نظراً لامتلاكهم رأس مال ضخم قادر على تحمل الخسارات أو الجمود في البيع، لكن حال تجار القرية يختلف تماماً، فهم يعتمدون على رأس

مال بسيط لا يسمح لهم سوى بتجارة محدودة عمادها تبادل البضائع بين القرى والمدينة. لقد أسهب أبو سالم في شرح الواقع كما هو بلا أوهام أو أحلام غير منطقية، وعندما أخبره أبو سالم بإمكانية أن يبيع المزرعة أو البيت من أجل الحصول على رأس المال، جن جنون أبي سالم وطلب منه ألا يفكر في هذا الموضوع نهائياً لأن هذا الأسلوب هو نوع من المقامرة غير المضمونة وربما تودي به وأسرته وتجعلهم يعانون الفاقة والفقر جراء أي قرار خاطئ يتخذه. كان أبو سالم مكتفياً بحالته المادية المعقولة وتجارته البسيطة التي أمنت متطلبات أسرته وجعلته يعيش حياة رغيدة لا ينقصه فيها شيء، على عكس أبي راشد الذي تميز بالقلق دائماً وبالطموح المتهور أحياناً، وكان عذره في ذلك هو محبته الكبيرة لعائلته وحرصه على ابنته سارة التي يخشى عليها من ملمات الدهر وانقلاباته التي لا يضمن نتائجها أحد.

كانت الشمس توشك على الغياب وقد بدأ جزء منها يختفي وراء قمم الجبال البعيدة حيث الشفق البرتقالي الخفيف يمتزج مع زرقة السماء ليشكلا وشاحاً تعتمره تلك المسافات التي تثير في قلب أبي راشد وفكره الكثير من الهواجس والأفكار. طلب أبو راشد من أخيه أن يتوقفا لرؤية الغروب الذي لا يوازيه في الروعة سوى الشروق، كان المشهد لا يحتمل سوى التأمل والاستغراق في التفكير وعظمة الخالق، لذا توقف الاثنان عن مناقشة أفكار التجارة بشكل تلقائي، وغرق كل منهما في فضائه الخاص

مستعينين بتحريض مشهد الغياب الأسطوري الذي اشتهرت به تلك المنطقة المسورة بالجبال والهضاب مترامية الأطراف. انتظر الاثنان حتى اختفت الشمس تماماً وراء القمم العالية، وشرعت بسحب بقايا نورها بهدوء حيث بدأ الضوء بالتحول من الأحمر القاني إلى القاتم المشوب بالرمادي الذي يهيىء لهبوط الظلام بكامل هيبته ووقاره.. استدار الاثنان إيذاناً بالعودة، وطلب أبو سالم من أخيه أن يعود إلى حضور المجلس ومشاركة الرجال قصصهم لاسيما أن الجميع يسألون عنه ويفتقدون أحاديثه وأخبار المناطق المجاورة التي يعبرها أثناء تجارته.

كانت خطوات العودة أسرع وأخف من خطوات الذهاب، كأن الأخوين تحررا من ثقل الأفكار التي حملاها بعد طول نقاش لم يصلا خلاله إلى أي قرار سوى التريث وانتظار المزيد من الدراسة والتمحيص. العتم راح يهبط ببطء بينما أبو راشد وأبو سالم ينحدران من سفح التلة باتجاه سالكين الدرب الترابي باتجاه المنزل. طلب أبو سالم من أخيه أن يلحق به إلى المجلس فبعد قليل من الوقت سيبدأ الرجال بالتوافد وسيكون حضوره مصدر سعادة وحيوية في المجلس الذي تغيب عنه البعض خلال الأيام الماضية بسبب انشغالهم بأعمالهم وأحوال عائلاتهم. فوعده أبو راشد خيراً وقد أوشك الاثنان على الوصول للبيت حيث ظهرت سارة من بعيد تقف أمام البوابة الرئيسية محاولة استنتاج ما أفضى إليه هذا المشوار من خلال الخطوات والالتفاتات المتكررة أثناء الحديث.

تعودت سارة على الهروب إلى تلك المساحات المفتوحة في البرية، تلك العادة التي ورثتها عن أبيها، تعود إلى سنوات طفولتها الأولى، عندما كان والدها يدربها على التعامل مع الأرض وحفظ أسماء النباتات ومواسمها والأمراض التي يمكن أن تعالجها. كلما اقترب الاثنان من البيت، استطاعت سارة أن تفعّل حاستها السادسة أكثر، كان ذكاؤها الحاد قادراً على فك رموز لغة الأجساد قبل أن تنطق بها الألسنة، كأن سارة أخذت حصة كبرى من ميزة الفراسة العربية الشهيرة، وقد غذاها أبوها بالسرديات والقصص التي تحفظها عن ظهر قلب حتى الآن.

لم يدخل أبو سالم إلى المنزل، اكتفى بملاطفة ابنة أخيه بكثير من الود ثم أخبرها أن ابنته مريم تسأل عنها وتنتظر زيارتها في أقرب وقت. ثم أخبر أخاه بأن عليه المغادرة إلى المجلس قبل أن يبدأ الرجال بالتوافد ثم أكد على أبي راشد أن يلحق به إلى هناك قبل أن يلقي التحية ويلوح بيده لعليا التي كانت تسير باتجاههم. تابع أبو سالم طريقه مطلقاً تنهيدة عميقة وهو يمشي باتجاه المجلس كي يلحق صلاة العشاء قبل أن يضج المكان بالحاضرين. وما إن غاب أبو سالم في انعطاف الطريق حتى حدقت عليا بوجه زوجها وعيونها ممتلئة بالأسئلة حول نتائج الحديث الذي دار بينهما، لكنها لم تسأل أبا راشد حول الموضوع لأنها تعرف عاداته جيداً عندما يطفح به الكيل ولا يعود قادراً على تحمل الإلحاح. سيتحدث من تلقاء نفسه، قالت عليا ذلك بصمت، ثم اتجه الثلاثة إلى داخل المنزل.

-8-

ازدحمت مضافة المجلس بالرجال، وكان هناك مجموعة من التجار الذين قضوا بعض الأعمال في القرية وقد تأخر بهم الوقت، ففضلوا حضور اجتماع وجهاء القرية المسائي والمبيت عند أبي سالم بعد أن رحب بقدومهم من قريتهم البعيدة التي ترتبط عادة بعلاقات تجارية مع مناطق أخرى نظراً للمسافة الطويلة التي تفصل بينهما. تحدث أبو سالم في البداية عن أحوال المنطقة وميزاتها المختلفة باعتبارها تطلّ على البحر والداخل في الوقت نفسه، ثم راح يشرح للرجال أنساب القبائل وتاريخها في المنطقة والعلاقات الطيبة التي تربط الناس بعد أن تحولوا مع الوقت إلى كتلة متراصة متعاونة في السراء والضراء. وكما تقتضي العادات العربية، لم يبادر أبو سالم إلى سؤال الضيوف عن أنسابهم وطبيعة زيارتهم للقرية والمناطق مروا بها قبل أن يصلوا، فترك لهم حرية الحديث بعد أن عرفهم بالحاضرين، بينما كانت فناجين القهوة العربية المرة، تقدم بانتظام من قبل أحد الشبان مع التمر الرطب. رويداً، تم كسر حاجز التوجس والحذر بين رجال القرية والضيوف، وقد تساءل كل واحد مع نفسه عن سبب هذه الزيارة غير المألوفة لتجار يقطعون المسافات البعيدة إلى منطقتهم التي لا تربطهم بها علاقات تجارية مباشرة؟ تناوب العديد من الحضور على الكلام، وكلما حضر وافد جديد من أهل القرية، قام أبو سالم بتقديمه

إليهم، بينما كانت النساء ينهمكن بتجهيز الطعام في المطبخ الكبير الذي بناه أبو سالم في جهة منعزلة من فناء المنزل.

لقد تأخر أبو راشد في الحضور، قال أبو سالم لنفسه وهو يوجه نظره نحو الباب منتظراً دخول أخيه الذي يعتبر من وجهاء القرية وتجارها المعروفين بالفصاحة ومعرفة أنساب العرب وأشعارهم ومآثرهم التي يتناقلها الناس جيلاً بعد جيل. كان أبو راشد قد تأخر مع زوجته عليا وابنته سارة، ثم فضل أن يمشي ببطء باتجاه المجلس تاركاً لأفكاره العنان أثناء الطريق، وهي عادة كانت تبعث في نفسه الراحة وصفاء الذهن فهي تمكنه من اصطفاء الأفكار وبلورتها أو تنظيمها بشكل جيد في عقله المشغول دائماً بهموم المستقبل والعمل وتأمين الضمانات التي تحمي ابنته سارة التي بدأت تشب عن الطوق. لم يكن أبو راشد على علم بزيارة الضيوف المفاجئة، وعندما لاحت له من بعيد مضافة أخيه أبي سالم التي تقع في واجهة المنزل، وقد ظهر محيطها نشطاً بشباب من القرية يساعدون في تقديم المتطلبات، إلى جانب دخان مواقد الطعام الذي راح يتضح شيئاً فشيئاً، تأكد أن ضيوفاً غرباء قد وفدوا إلى القرية دون سابق إنذار وأن أخاه أبا سالم لاشك سيكون بانتظار لحظة وصوله على أحر من الجمر. عندما دخل أبو راشد من باب المجلس الكبير، وقف جميع رجال القرية فتبعهم بسرعة الرجال الضيوف موقنين أهمية الوافد الجديد الذي يستقبله الحضور بالوقوف دفعة واحدة مع عبارات

الترحيب والاحترام. جلس الجميع بعد تبادل الكلمات المعتادة في هذا النوع من الاجتماعات، ثم بدأ أبو سالم بتقديم أخيه للضيوف وهم يبدون سعادتهم بالتعرف إلى شخص من علية القوم. تحدث إسماعيل وهو أبرز الضيوف عن إعجابه الكبير بالقرية وطبيعتها الساحرة وإطلالتها البحرية التي تؤهلها لأن تلعب دوراً تجارياً كبيراً في المستقبل إذا تم تنفيذ بعض المشاريع التي تحيي المكان وترفع مستوى دخل السكان وتشجع الناس على ارتيادها نظراً لكونها صلة وصل بين الساحل والداخل. كان إسماعيل يسهب في الكلام ويقارن القرية مع قرى أخرى شهدت نهضة حقيقية بعد إحداث بعض المشاريع التي اشترك في تنفيذها العديد من التجار وأصحاب رؤوس المال في المنطقة، بينما كان أبو راشد يستمع بإصغاء إلى هذه الأفكار التي يطرح الرجل الغريب ويقارنها مع ما فكر به طويلاً من مشاريع كبيرة تعود بالخير ليس عليه فقط بل على جميع أبناء جلدته التائقين لحياة أفضل.

تحدث أبو راشد بعد طول استماع لكلام إسماعيل، وبعد أن تأمل مطولاً في وجوه مرافقيه محاولاً الاستفادة من ملكته في الفراسة ليعرف طبيعة أولئك الرجال الذين هبطوا بشكل مفاجئ في القرية قادمين من مكان بعيد لا يعلم عنه أهل القرية الشيء الكثير. كان كلام أبي راشد كافياً لأن يفرض الصمت المطلق على الحضور من شدة فصاحته وترابط كلامه وتدعيم كلامه بالشعر العربي وأمثال القدماء من أبناء قومه الذين

خبروا الحياة وتعرضوا للكثير من الظروف الصعبة في بداياتهم الأولى قبل أن يتمكنوا من إنشاء هذه القرية الصغيرة التي راحت مع الوقت تكرس مكانتها بين القرى المجاورة مستفيدة من موقعها الاستراتيجي وطيبة أهلها وشغفهم الدائم بمواكبة التطور ورفع مستوى المعيشة الاقتصادية والتربوية، بينما كان إسماعيل يهز برأسه موافقاً على كل كلمة تفوه بها أبو راشد، وبين الحين والآخر يثني على الكلام بكلمات لا تقطع كلام أبي راشد الذي كان ينساب بثقة تؤكد أن صاحبها من الرجال الوجهاء أصحاب المكانة العالية بين القوم. مضى وقت طويل والجميع يتبادلون الرأي ويتناقلون القصص وأخبار الأعمال والأسفار، وكل واحد يجهد كي ينال إعجاب الآخرين بقصصه النادرة وحكمه الفريدة، في ذلك الوقت بدأ شبان القرية بعد الاستئذان من أبي سالم، بفرش البساط الطويل الذي يوضع عادة قبل فرد الطعام المزيّن برؤوس الخراف التي تم ذبحها احتفاء بالضيوف في تلك الليلة التي اعتبرت من الأمسيات المميزة نظراً لما شابها من أحاديث وأشعار وقصص، وكان من اللافت تقرب إسماعيل من أبي راشد ومحاولته كسب وده وصداقته، إذا أخبره قبل انتهاء المجلس عن عزمه زيارته في الصباح في المزرعة التي تحدث عنها أبو راشد بكثير من الحب. وما كان من أبي راشد إلا أن يرحب بالزيارة ويعد إسماعيل بالقدوم صباحاً لاصطحابه إلى المزرعة مع أخيه أبي سالم، بينما قرر بقية الرجال من الضيوف المغادرة ومتابعة الطريق نظراً للأعمال التي يرتبطون بها. غادر أبو راشد المجلس، وفي الطريق

بدأ يستعرض شريط هذا اللقاء مع الضيوف الغرباء القادمين من منطقة بعيدة، ويتساءل مع نفسه إن كانت تلك الزيارة طبيعية حصلت بالمصادفة أم أن هناك ما يخفيه أولئك الرجال الذين وصلوا بشكل مفاجئ؟ المشكلة بالنسبة أبي راشد أنهم من منطقة بعيدة لا يملك فيها معارف وأصدقاء من التجار ليسأل عنهم، فالعلاقات مع هذه القرية قليلة ونادرة لا تحدث بحكم العمل بل بحكم المصادفة فعلاً. فكر أبو راشد طويلاً لماذا طلب إسماعيل زيارته في المزرعة وهل هناك شيء يريد أن يقوله ويطرحه عليه؟ لكن هذه الأسئلة كانت صعبة الإجابة، فترك الأمر حتى الصباح حيث ستجلي الشمس كل تلك الهواجس أثناء جلوسهم في المزرعة تحت أشجار النخيل.

وصل أبو راشد إلى البيت، وكانت عليا وسارة تغطان في نوم عميق بعدما تأكدتا أن أبا راشد سيتأخر وأن الساعة قد تجاوزت احتمال وصوله المبكر إلى البيت. فتح أبو راشد البوابة بهدوء ودلف إلى داخل المنزل محاولاً عدم إصدار ضجيج يوقظ زوجته وابنته، لكنه لم يستطع منع نفسه من الدخول إلى غرفة سارة وطبع قبلة على جبينها وهي نائمة، وثم المغادرة بهدوء. لم يستطع أبو راشد النوم مباشرة، فجلس يقلب أفكاره، وتارة يحمد الله على النعم التي يعيشها في كنف زوجته وابنته سارة التي أعادت له معنى الحياة، وتارة أخرى يشعر بالتقصير وضرورة العمل بجهد أكبر من أجل تطوير

أعماله وتجارته بشكل يرضيه ويضمن عيشاً كريماً في المستقبل لعائلته. لم يستطع أبو راشد مقاومة الأفكار السلبية التي تنتابه إذا ما حصل له مكروه وغادر هذه الدنيا تاركاً ابنته سارة وزوجته عليا دون وجود ضمانات كافية لحياتهما، لكنه سرعان ما يستبعد ذلك بالهروب لفكرة أخرى فيستعيذ من الشيطان ويحمد الله مرة ثانية وثالثة على ما هو فيه من نعم لا يشعر بها سوى من يفقدها. تأخر الوقت وأبو راشد مازال جالساً لوحده مع أفكاره المزدحمة، وعندما سمع صوت الأذان، نهض استعداداً لأداء صلاة الصبح، فتوضأ وقرأ بعض الآيات القرآنية كي يشعر بالتحسن وطمأنينة القلب، في هذه الأثناء استيقظت زوجته عليا على صوته وهو يروح ويجيء في البيت، فنهضت من مكانها ليطمئن قلبها من بقاء أبي راشد حتى هذه الساعة المتأخرة مستيقظاً، وعندما وجدته يصلي، هدأت من روعها وذهب باتجاه المطبخ كي تعد القهوة ريثما ينهي زوجها صلاته.

-9-

لم يستطع أبو سالم النوم حتى بزوغ الفجر في تلك الليلة، فبقي مرافقاً لشباب القرية الذين ساعدوه في إعداد الطعام وتقديم متطلبات الضيوف، حتى أنهوا كل شيء وغادر كل واحد إلى منزله، بينما كانت الهواجس والأفكار ترافقه هو الآخر مثلما حصل مع أخيه أبي راشد،

فجلس بعض الوقت منفرداً بذاته يحاول أن يبحث إن كان وراء أولئك الضيوف ما يخفونه في زيارتهم تلك، لكنه طمأن نفسه بأن كل شيء كان طبيعياً، فهم لم يطلبوا شيئاً يثير الحذر، وربما كانوا بالفعل مجموعة من التجار الباحثين عن آفاق عمل جديدة كما يقولون. وبينما كان أبو سالم منزوياً مع نفسه بعد أن خلد الضيوف للنوم في المضافة، دخلت عليه زوجته التي لم تستطع النوم كعادتها إذا لم تطمئن على زوجها وقد آوى للفراش. سألته أم سالم عمّ يدور في ذهنه ولماذا لم يخلد للنوم بعدما انتهى لقاء المجلس ونام الضيوف وقد قام بكامل واجباته على أكمل وجه؟ لكنه لم يجبها بما يفكر، بل اكتفى بطمأنتها بأن كل شيء على ما يرام.

طيلة السنوات الماضية، تمكنت أم سالم من فهم زوجها بشكل دقيق، وقد أدركت أنه يحمل الكثير من الهواجس لكنه ينتظر كي تصبح أكثر وضوحاً بالنسبة إليه حتى يصارحها بها. تحدث الاثنان عن وضع بناتهما وكيف قضيا هذا اليوم الذي لم يتمكن فيه أبو سالم من رؤيتهم فيه بشكل كاف نظراً لانشغاله باستقبال الضيوف. وقد طلبت منه أن يخصص لها مبلغاً من المال من أجل مساعدة إحدى الجارات التي تمر بضائقة وظروف مرضية تقتضي الوقوف إلى جانبها في هذا الوقت العصيب، وكعادته سارع أبو سالم إلى مناولتها المال طالباً منها أن تطلب المزيد إذا لم يكف هذا المبلغ لشراء كافة الحاجيات. كانت

علائم الصباح قد بدأت بالظهور، وقد نال التعب من أبي سالم فأراد أن يتمكن من أخذ قسط من الراحة قبل أن يستيقظ الضيوف ويضطر لمجالستهم قليلاً وتوديعهم حيث كانوا قد أخبروه أنهم سيتابعون رحلتهم في الصباح الباكر.

مضت ساعات قليلة، ليستيقظ أبو سالم على صوت زوجته تطلب منه النهوض لأن الضيوف قد استيقظوا وهم يعدون أنفسهم للمغادرة. استيقظ أبو سالم متثاقلاً من التعب والنعاس، فارتشف فنجان قهوة أعدته أم سالم قبل أن توقظه، ثم غادر باتجاه فناء البيت حيث قاعة المجلس فوجد الضيوف قد استيقظوا فعلاً وجهزوا أمتعتهم وحاجياتهم الأخرى بانتظار قدوم أبي سالم لإلقاء التحية عليه والمغادرة. حاول أبو سالم إقناعهم بالبقاء وتناول الفطور قبل الرحيل، لكنهم اعتذروا، بينما قرر إسماعيل البقاء وتأجيل سفره حتى المساء من أجل زيارة أبي راشد في مزرعته برفقة أبي سالم.

بعد أن غادر الرجال متابعين رحلتهم، جلس أبو سالم مع ضيفه إسماعيل، وحاول أن يفتح بعض الأحاديث التي يمكن أن تكشف له ماذا يكمن وراء هذا الرجل، فسأله إن كان قد أعجب بمنطق أخيه أبي راشد حتى طلب زيارته في المزرعة إلى درجة أنه تخلى عن مرافقة بقية الرجال. فتحدث إسماعيل عن السمعة الطيبة التي وصلته منذ زمن

طويل عنه وعن أخيه أبي راشد، وكم تمنى أن يتعرف إليهما نظراً لما عرفا به من محبة الخير ومساعدة الناس وامتلك المعرفة والثقافة العميقة والتحلي بأخلاق العرب وتقاليدهم. رغم أن هذه التبريرات لم تقنع أبا سالم، إلا أنه أعاد الترحيب بضيفه إسماعيل، داعياً إياه إلى تناول الإفطار قبل الانطلاق إلى بيت أبي راشد والمتابعة إلى المزرعة.

كان أبو راشد يتمشى مع ابنته سارة متمتعين بشمس الصباح أمام المنزل، وكعادته منذ أن كانت ابنته صغيرة، حدثها عن الطقس في هذا الوقت والنباتات ومستقبلها الذي سيحرص أن يكون زاهراً مليئاً بالنجاح والتفوق بعدما أثبتت تميزها وتقدمها على زميلاتها الأخريات. اعتاد أبو راشد أن يحدث سارة بكل شيء ويأخذ رأيها حتى بالمسائل التي لا خبرة لها فيها، وذلك انطلاقاً من قناعته ببراءتها وحكمها على الأمور من دون أية تأثيرات خارجية. ولكم شعر بالسعادة وهو يستمع إلى ابنته التي ظهرت عليها علامات الصبا، وهي تتحدث كالنساء الحكيمات كبار السن. لقد شعر أن تربيته لم تذهب هدراً وأن ما أنعمه الله عليه بهذه الابنة البارة، يضاهي ما يحلم به بقية الرجال من أبناء ذكور يعتقدون أنهم أفضل من البنات.

ظهر أبو سالم من بعيد يتقدم المنزل يرافقه إسماعيل الضيف، فطلب أبو راشد من ابنته أن تدخل وتخبر والدتها بذهابه مع عمها وضيفهما

إسماعيل إلى المزرعة لقضاء بعض الوقت وقد يعودان ظهراً من أجل تناول الغداء.

كان إسماعيل يتأمل المنطقة طوال الطريق، وأحياناً يبادر إلى توجيه الأسئلة لأبي سالم وأبي راشد، عن أسماء المناطق وكم تبعد عن البحر وهل جميع هذه المزارع المتوزعة على أطراف البلدة تحتوي على المياه الجوفية بالقدر الكافي، وغير ذلك من التفاصيل التي رفعت نسبة التوجس عند أبي سالم فكان يتساءل بصمت عن سبب هذه الأسئلة وأن كانت من باب الفضول أم أن إسماعيل يخفي وراءها شيئاً؟.

وصل الرجال إلى مدخل المزرعة وقام أبو سالم بفتح الباب والترحيب بإسماعيل داعياً إياه بالدخول. كانت جلسة مليئة بالأسئلة عن أحوال التجارة في المنطقة وإمكانية تطويرها والقيام بمشاريع تدر أرباحاً كبيرة على أبي راشد وأخيه، حسب ما زعم إسماعيل الذي قدم نفسه كخبير في التجارة مع المناطق المجاورة حيث هناك أنواع معينة من البضائع يمكن استيرادها وهي مطلوبة جداً في السوق المحلية وبالمقابل يمكن بيع المنتجات المحلية إلى الخارج، عبر شراء مركب كبير يحمل البضاعة الخاصة بصاحب المشروع وتلك التي يقوم التجار الآخرون بشحنها معه على ظهر المركب لتصل إلى وجهتها في القرى المجاورة.

طرح إسماعيل فكرة أن تقوم شراكة بين الرجال الثلاثة، ويتوازعوا الحصص بشكل متساو بينهم على أن يشاركوا برأس المال بالنسبة نفسها، واعداً إياهما بالقيام بعملية الإبحار والإشراف على تسليم البضاعة والتسوق من الأسواق الخارجية بشكل لا يتحمل به أبو سالم وأبو راشد أية متاعب سوى المشاركة برأس المال، أما إن أحب أحدهما المشاركة في الإبحار والسفر فيكون ذلك من الأشياء الجيدة التي ستجعل من الرحلة أكثر متعة بسبب الرفقة الطيبة أثناء السفر حيث يتطلب المركب عدة أيام في الذهاب والعودة.

كان لدى إسماعيل كل تفاصيل المشروع وتكلفته وكل المتعلقات به، كأنه أعد نفسه سلفاً لهذا اللقاء، وقد أردف بالتأكيد لأبي سالم وأبي راشد أنه يبحث عن شركاء في هذا المشروع وقد فضلهما على الآخرين نظراً لسمعتهما الطيبة وصدقهما في التعامل، بينما كان الأخوان لا يبديان ردة فعل ولا يعطيان إسماعيل رأياً قاطعاً بل يكتفيان بالقول إن المشروع يحتاج إلى الدراسة والبحث وإجراء الحسابات اللازمة من أصحاب الاختصاص لأن خبرتهما بهذا النوع من العمل معدومة ولم يسبق لهما التجارة عبر البحر. اكتفى إسماعيل بهذا القدر من الحديث، ولم يقم بالإلحاح عليهما في اتخاذ القرار، بل أخبرهما أنه سيغادر اليوم لقضاء بعض الحاجيات في المدينة ثم الإكمال إلى قريته، لكنه سيعاود القدوم إلى القرية بعد أن يكونا قد فكرا بالموضوع ملياً واتخذا

القرار المناسب بعد شهر تقريباً من ذلك التاريخ.

غادر إسماعيل القرية ظهر ذلك اليوم، وترك في جعبة أبي راشد وأبي سالم الكثير من الأسئلة والاستفسارات عن ماهية هذا الرجل الغريب وهل من المنطقي أن يقوما بمشاركته في تجارة ضخمة تتطلب رأسمال كبير لا يمكن تأمينه بشكل سهل. كان أبو سالم الأكثر حذراً وقد رفض التفكير بالموضوع من أساسه، وقال لأبي راشد إن من يعمل في مهنة لا يعرف فيها شيئاً سيكون مصيره الخسارة بالتأكيد. رافقت الحيرة الأخوين، وكان أبو سالم حاسماً برفضه المشروع لأنه لا يمتلك خبرة في هذه المهنة المتعلقة بالاستيراد والتصدير، وحتى لو امتلك الخبرة الكافية فهو لن يشارك رجلاً غريباً لا يعرف عنه شيئاً، بينما ظهرت الحيرة على أبي راشد نتيجة تفكيره الطويل في تطوير تجارته ورفع مستواه المعيشي وضمان مستقبل أسرته وابنته سارة الذي يخاف عليها من نسمة الهواء.

مضت عدة أيام ولم يناقش أبو راشد مع أخيه فحوى هذا المشروع كي يتخذا قراراً مشتركاً بالمشاركة أو عدمها. كان الإثنان يفكران وكل منهما يخاف على الآخر ويرغب أن يكونا في الموقف نفسه، لكنّ أبا سالم خاف كثيراً من مشاركة إسماعيل، وخاف أن يتحمل تبعات أي خسارة يمكن أن يتعرض لها أبو راشد إذا قرر الدخول مع إسماعيل

في هذه التجارة . لقد حاول أبو سالم على الدوام إخفاء قلقه على مستقبل بناته، واكتفى بالاتكال على الله والعمل الدؤوب من أجل تأمين متطلباتهن كما عمل على تخصيصهن برصيد من المال يضيف إليه كلما استطاع، كي يبقى لهن زاداً في المستقبل إذا ما اضطررن لذلك. جلس أبو سالم طويلاً يناقش هذه الأفكار مع زوجته التي لم تشعر بالاطمئنان هي الأخرى لهذا المشروع الصادر عن إنسان غريب لا يعرفون فحواه وأصله وسمعته في التجارة حيث ينتمي إلى قرية بعيدة لا يملكون أي اتصالات معها. قالت أم سالم إن الاكتفاء بما رزقنا الله به وبأعمالنا الحالية، يغنينا عن مغامرة كهذه يمكن أن تودي بنا إلى الهلاك إذا ما فشل المشروع أو إذا لم يكن المدعو إسماعيل على قدر المسؤولية من الأمانة والأخلاق. خلال عدة جلسات من النقاش طيلة أيام كاملة، حسمت عائلة أبي سالم أمرها برفض الدخول في المشروع ومحاولة إقناع أبو راشد باتخاذ القرار نفسه.

عاد أبو راشد يقضي ساعات طويلة في مزرعته منفرداً بنفسه، وعندما يعود للمنزل يتأخر في الخلود للنوم على غير عادته منذ أن رزقه الله بابنته سارة. تمكنت رغبة الربح وتطوير الأعمال التجارية من إحداث قلق كبير في حياة أبي راشد، خاصة بعد أن جاء الغريب إسماعيل بهذا الشكل المباغت إلى القرية وأوقد مجدداً نار الرغبة تلك بمشروعه التجاري الخاص. لم تكن عليا تعرف ماذا تقول لزوجها حيال المشروع،

فهي لا تمتلك خبرة في التجارة ولم تتصور ما هو القرار السليم، هي تكتفي بالمستوى المعيشي الحالي للأسرة أم تشجع أبا راشد على الدخول في هذا المشروع الذي يمكن أن يقلب حياتهم رأساً على عقب؟

مضت أيام كثيرة وقرب موعد قدوم إسماعيل مرة ثانية إلى القرية حسب الاتفاق الذي تم قبل مغادرته، لكنّ أبا سالم لم يتمكن من إقناع أخيه برفض المشروع، فبقي متردداً لا يعرف ماذا يتصرف. هل يرفض ويبقى متواضع الثروة أم يغامر ليحصل على المال الوفير؟ في النهاية حسم أمره وقال في نفسه إن الإجابة الدقيقة لابد أن أجدها في المدينة عند صديقي تاجر الأقمشة الذي يمكن أن ينصحني أو يسأل الخبراء في هذا النوع من الأعمال حتى أتمكن من اتخاذ القرار السليم. وكعادته اختيار أبو راشد موعد بعد العصر لمغادرة القرية كي يتمتع بمشهد الغروب ويرى الشمس وهي تختفي خلف قمم الجبال الشاهقة التي تبدو مثل كتل صخرية ضخمة تزينها شجيرات الغاف مثل شامات خضراء ممتدة على المساحات الرمادية الغامقة للصخور. انطلق أبو راشد باتجاه المدينة وهو يغرق في تأملات عميقة جعلته يجول بنظره ذات اليمين والشمال، وقد توقف أكثر من مرة على جانب الطريق بهدف استنشاق الهواء النظيف والاستراحة، ولم يكن هذا السلوك إلا دليلاً على حجم القلق الذي يعيشه أبو راشد حول المشروع التجاري الذي قض مضجعه.

وصل أبو راشد بعد المساء إلى المدينة، وقبل أن يتوجه إلى منزل صديقه تاجر الأقمشة، مر على السوق فاشترى بعض الهدايا والحاجيات لصديقه القديم، ثم تابع طريقه مسرعاً باتجاه المنطقة التي يسكنها تاجر الأقمشة وهو متلهف للرد الذي سيحصل عليه حول الفكرة التي يحملها. هل سيسخر تاجر الأقمشة مني ويتفق مع موقف أبي سالم في ضرورة العزوف عن المشاركة في المشروع؟ هل سيشجعني على المغامرة بقلب قوي وقناعة راسخة بتحصيل المرابح الكبرى؟ أم أن صديقي تاجر الأقمشة سيحجم عن الادلاء برأي قطعي باعتباره مختصاً ببيع القماش ولا علاقة له بالتجارة؟ كل تلك الأسئلة كانت تدور في رأس أبي راشد وتجعله أكثر استعجالاً على طرق الباب والانفراد بسرعة مع صديقه ومواجهته بكل هذه الأسئلة دفعة واحدة. كان أبو راشد بحاجة إلى من يتبناه بالمعنى الحرفي في هذه القضية، وقد وصل إلى تاجر الأقمشة وهو على قناعة بأنه من يستطيع تولي هذه المهمة.

رحب تاجر الأقمشة بقدوم صديقه المقرب، وانتابه القلق من وصوله في وقت ليس ضمن مواعيده المعتادة، لكنه أخفى تساؤلاته ودعاه للدخول بكثير من التودد والكلمات الطيبة. ظهر وجه أبي راشد تائهاً مليئاً بالكلام الهام الذي دفعه لأن يقطع تلك المسافة الطويلة بين قريته والمدينة من أجل الحصول على سكينة يأمل في إيجادها عند

صديقه الذي اعتبره الأمل الأخير في إرسائه على بر الأمان.

جلس الصديقان في المضافة ولم يكد أبو راشد يلتقط أنفاسه إلا وشرع بالحديث طالباً من تاجر الأقمشة أن يترك كل شيء ويجلس كي يستمع إليه. تحدث أبو راشد مطولاً عن زيارة الرجال الغرباء وعن مشروع إسماعيل التجاري وشراء مركب لنقل البضاعة من المنطقة باتجاه شواطئ القرى القريبة ومن ثم يعود محملاً ببضاعة أخرى من تلك الأسواق الخارجية. أخبره أن المشروع يحتاج مبلغاً كبيراً من المال لا يمكن لشخص واحد أن يتحمله، وتحدث عن تردد أخيه أبي سالم ورفضه المشاركة في هذا المشروع نظراً لعدم معرفته بهذا العمل وعدم تفضيله للعمل مع شخص غريب لا يعرف عنه شيئاً. كان تاجر الأقمشة يستمع بإصغاء وتركيز كبيرين ويكتفي بهز رأسه دون أن ينطق بكلمة واحدة. لقد تفهم موقف أبي راشد عندما تحدث عن عائلته وتأمين مستقبل ابنته الوحيدة وسعيه توفير كل متطلباتها المستقبلية خوفاً من غدر الزمان. أسهب أبو راشد في سرد جميع التفاصيل التي كان قد جمعها عن المشروع قبل قدومه إلى المدينة، حتى يتمكن تاجر الأقمشة من تكوين صورة كافية عن المشروع والظروف المحيطة به والاحتمالات الكبيرة لنجاحه كما يأمل. وعندما انتهى أبو راشد من الكلام، حدق بوجه صديقه وهو ينتظر بفارغ الصبر أن يدلي بدلوه ويضع النقاط على الحروف التي سوف ترسيه على بر الأمان فيتخذ

القرار الصائب دون تردد أو خوف.

تحدث تاجر الأقمشة عن شركات التجارة التي انتشرت في القرى خلال الفترة الأخيرة، لكن معلوماته التفصيلية عنها لم تكن بالشكل الكافي لأنها تقع خارج اختصاص عمله واهتماماته، لكنه أردف بالقول إن هناك جوانب قانونية يمكن أن تضمن حقوق الأطراف المشاركة في كل مشروع وبالتالي لا خوف من تلك الشراكة إذا تمت وفق الأصول والأعراف المعروفة في مثل هذه الحالات، لكنه لم يستطع أن يعطي أبا راشد رأياً قاطعاً بأن هذا النوع من المشاريع مضمون النتائج الربحية، لأن التجارة كما يقال ربح وخسارة، ويمكن أن يحدث أي شيء مفاجئ في العمل وأسعار البضاعة فيسبب تقلبات في السوق تكون مفاجئة ومسببة للمرابح الكبيرة أو الخسارات الهائلة التي لابد للتجار أن يحسبوها بدقة قبل الشروع بالعمل ودفع رأس المال.

أحس أبو راشد بأن إجابات صديقه تاجر الأقمشة لم تشف غليله ولم تبث السكينة في نفسه وتنير الطريق من أجل اتخاذ القرار المناسب، لكن تاجر الأقمشة كان واضحاً وحاسماً في تلك القضية فأكد لأبي راشد أنه من غير الممكن لأحد أن يجزم بنجاح أو فشل هذا المشروع قبل أن ينطلق وتظهر نتائجه الأولى بشكل مباشر، ووافقه على أن في المشروع جانب كبير من المغامرة كبقية المشاريع الأخرى، لكن التجار

عادة يحسبون كل تلك المفاجآت بحيث لا يصابون بالإفلاس إذا ما حصل مالا تحمد عقباه لا سمح الله. شعر أبو راشد أن قلقه ازداد وأن عليه هو شخصياً أن يتخذ القرار ويتحمل التبعات مهما كانت، لكن الخسارة بالنسبة إليه في مشروع يتطلب دفع كل ما يملك تقريباً، كانت تعني ضياع مستقبل أسرته بشكل كامل، وفي الوقت نفسه كان النجاح يعني نقلة نوعية وخلاصاً من كل الهواجس التي تقض مضجع أبي راشد حول الحياة ومفاجآتها ومستقبل ابنته الوحيدة.

تساءل تاجر الأقمشة لماذا لم يختر أبو راشد مشروعاً آخر يملك فيه خبرة أكبر، أو لماذا لا يبادر إلى توسيع تجارته الحالية، لكن أبا راشد كان يعرف أن التجارة التي يعمل بها ضمن نطاق القرى المجاورة لقريته، محدودة وأن متطلبات السوق لن تسمح بالمزيد من المرابح التي يأمل بها، فعدد المستهلكين قليل وطبيعة الحياة الريفية تفرض أنواعاً معينة من البضاعة، أما بالنسبة لانواع التجارة الاخرى فالسوق مفتوح ويمكن أن يتوسع باتجاه عدة مدن داخلية وخارجية وهو ما يعني وجود آفاق أكبر واحتمالات أوسع للتطور وزيادة الربح.

وقت طويل قضاه الاثنان وهما يناقشان الموضوع، لكن تاجر الأقمشة لم يتمكن من القول لصديقه أن يدخل المشروع بقوة وسرعة نظراً لنتائجه المجهولة، فهذا أمر لا يمكن أن يحسمه هو شخصياً بل صاحب الفكرة

الراغب بتأسيس هذه التجارة. قال أبو راشد في نفسه: جئت كي أتخلص من الحيرة، فوقعت في حيرة أكبر!. وعندما شعر أن المشروع قبل أشبع بالنقاش ولم يعد هناك ما يمكن الحديث عنه، فضل أن يغير الموضوع باتجاه أمور أخرى حتى لا يشكل عبئاً على صديقه الذي لم يبخل عليه بإبداء الرأي الواضح لكنه أيقن القرار لابد أن يتخذه هو بنفسه.

ليلة مضطربة قضاها أبو راشد عند صديقه تاجر الأقمشة، وفي الصباح الباكر فضل المغادرة والعودة باتجاه القرية تاركاً أمامه بعض الوقت حتى يتخذ القرار النهائي قبل رجوع إسماعيل الغريب إلى القرية حسب الاتفاق الذي حصل في السابق. كان الطريق طويلاً جداً أمام أبي راشد، وكالعادة حبذا أن ينطلق في الصباح الباكر قبل أن تشرق الشمس، كي يشاهد بزوغ الضوء أثناء الطريق، كانت الحركة قد بدأت تنشط رويداً عندما استلم مسار الطريق باتجاه الشرق، وكان مشهد القوافل القادمة والمغادرة من المدينة محملة بالبضاعة، يعطي انطباعاً إيجابياً عند أبي راشد فيشعر بامتلاك الشجاعة على اتخاذ ذلك القرار، لكنه سرعان ما يتردد ويعيد حساباته مرة ثانية. كانت انعطافات الطريق وإشارات التوقف والتمهل التي تظهر بين الحين والآخر على الطريق ، تشبه حالته النفسية التي تعاني الاضطراب والتردد بين التفاؤل والتشاؤم، وبين الإقدام والانكفاء.

حاول أبو راشد أثناء الطريق بلورة رأيه والخروج بمحصلة يقرر على

أساسها هل يدخل المشروع أم لا. استعرض جميع الآراء والتحذيرات والتشجيعات التي تلقاها، ووضع جميع الاحتمالات الجيدة والرديئة لكنه حاول استبعاد فرضية الانكسار التام والقاسي للمشروع، فقال في نفسه إنه ومهما ساءت ظروف هذا المشروع فلن يودي بي إلى الفقر وفقدان كل شيء. وعندما لاح بيت قريته من بعيد، شعر بأنه وصل إلى القرار الذي لا رجعة عنه، وهو الدخول في المشروع لأنه ضربة العمر بالنسبة إليه. كان أبو راشد بحاجة إلى حسمٍ ما ينهي حالة القلق التي يعيشها بسبب تلك الفكرة، ومن أجل عدم الانجرار وراء الوهم، حرص على أخذ آراء جميع المحيطين به، لكن لم يقل له أحد أن يقدم على المشروع بقوة لأن نتائجه مجهولة، هذا القرار الصعب كان من اختصاصه هو بكل إيجابياته وكارثيته المحتملة، وقد توصل إليه بالفعل.

-10-

سمعت سارة صوت يناديها من عند باب المنزل، فهرعت مسرعة للخارج كي تستقبله وتطمئن عليه، وقد لحقت بها أمها عليا باللهفة نفسها، ففي الليلة الماضية كانت الاثنتان قد تبادلتا مشاعر القلق التي تشعران بها حيال أبي راشد والهمّ الذي راح ينتابه من جديد بسبب مشروع إسماعيل، الرجل الغريب الذي جاء بغتة إلى القرية وقلب كيانه بهذا الشكل. تحدثت عليا لابنتها سارة عن السنوات التي سبقت

ولادتها، وأخبرتها كم كان والدها صعباً وعصبياً بسبب تأخر الإنجاب، وكيف كان يقضي معظم يومه في المزرعة أو مشغولاً بسفرياته الكثيرة إلى المدينة والقرى المجاورة، فلم تستقر به الأمور ويعود إلى طبيعته إلا بعد أن زغردت الداية أم عبيد معلنة حصول الحمل بشكل مؤكد. في تلك الليلة قالت عليا لابنتها سارة، اليوم يحتاج أبوك لحدث يوازي ما حصل سابقاً عند تلقيه بشرى حملي بك، كي يعود إلى طبيعته فتهدأ روحه وتستقر. لكن من يضمن أن تتكرر التجربة بالنجاح المنتظر، وماذا لو فشل المشروع التجاري الذي قد يقرر المشاركة فيه في أية لحظة؟ بالمقابل، كانت سارة تحفظ أباها جيداً وقد استبد بها الخوف من التغيرات التي بدأت على ذلك الرجل الذي طالما اعتبرته قدوة في حياتها، لماذا كل هذا القلق حول المشروع ولماذا لا نرفضه ونرتاح بشكل كامل من هذا الهاجس غير المضمون النتائج؟ أسئلة كثيرة واستفسارات متنوعة وجهتها سارة لأمها بعد أن سافر أبو راشد إلى المدينة، لكنها لم تحصل على إجابات شافية، لهذا قررت أن تفتح الموضوع مع أبيها عند رجوعه وتحاول إقناعه برفض المشروع والاكتفاء بما عليه العائلة من مستوى معيشي يعتبر جيداً في ظل الهدوء النفسي والسعادة التي تعيشها الأسرة بعيداً عن القلق والمغامرات غير المحسوبة.

وصلت سارة إلى بوابة المنزل الرئيسية بينما كان أبو راشد يفتح الباب

ويهمّ بالدخول، فعانقته مطولاً وعبرت عن غضبها بسبب سفره وانشغاله الدائم عنها بالأمور التجارية التي لا داعي لإعطائها كل هذا الاهتمام والوقت. اكتفى أبو راشد بالابتسام ثم طبع قبلة على جبين ابنته وظهرت عليه علامات الرضا التي لا تظهر عليه إلا مع سارة العزيزة على قلبه وروحه. تابع أبو راشد طريقه باتجاه غرفة المعيشة ترافقه عليا وسارة، وكانتا تسألانه عما جلبه لهما من المدينة وماذا يوجد في هذه الأكياس التي يحملها. كان من عادة أبي راشد ألا يدخل المنزل فارغ اليدين، هكذا عوّد زوجته وابنته على الاكتفاء الدائم والحياة الرغيدة التي تدفعه اليوم للتفكير في المستقبل من أجل المحافظة عليها.

دخل الجميع إلى غرفة المعيشة، وشرعت عليا بتجهيز الفطور لزوجها، بينما انشغل أبو راشد مع ابنته سارة بالحديث عن سفرته إلى المدينة وزيارته لصديقه تاجر الأقمشة والآراء التي نصحه بها حول مشروعه الجديد. كان يظهر على أبي راشد أنه مقتنع تماماً عن المشروع لكنه يبحث عن مبررات تثبت صحة قناعته، لهذا كان يرفض كل الانتقادات حتى لو كانت منطقية، وهو ما دفع سارة لمواجهته بتلك الحقيقة التي خشي الجميع أن يواجهونه بها. يبدو أنك اتخذت قرارك بالدخول في هذا المشروع يا أبي وانتهى الأمر. قالت سارة ذلك وهي تحدق بوجه والدها منتظرة إجابة شافية مقنعة لهذا السؤال. شرح أبو راشد لابنته سارة أهمية المشروع لمستقبل العائلة ومستقبلها الشخصي، ثم

تحدث عن كبره في السن وعدم قدرته على العمل بالكفاءة نفسها التي تتطلب الكثير من السفر والانتقال والبحث عن بضاعة في الأسواق ومن ثم تصريفها إلى الزبائن حيث كثيراً ما عانى من الكساد وتراكم البضاعة دون أن يحصل على مستهلكين. وأضاف إن الضمانات لهذا المشروع تعني الحصول على تطمينات وإبرام عقد شراكة عند كاتب القرية المختص حيث لا مجال للخسارة الكبيرة، فالمركب سوف يحمل بضاعة التجار التي يريدون إيصالها إلى القرى المجاورة، إضافة إلى البضاعة التي سيتسوقها هو شخصياً مع شريكه إسماعيل، كما بإمكانه السفر على متن المركب إن رغب أو تكليف من يشرف على عملية التسويق بينما يكتفي هو بمتابعة البضاعة في السوق المحلية.

قالت سارة لأبيها إن مستقبلها الشخصي متعلق بسلامته وأمها، وليس بمقدار المال الذي ستحصل عليه من التجارة، فرغم أهمية المال إلا أنه لا يساوي شيئاً أمام الصحة وهناء البال. ثم طلبت منه أن يضع فرضية الخسارة والانكسار في الحسبان، فسألته ماذا سيفعل إذا حصل ذلك بالفعل؟ وهل يمكنه تجاوز تلك المصيبة والتغلب عليها؟ فالجميع يعلم أن أبا راشد من الأشخاص الذين يحملون همّ أبسط الأمور فكيف إذا كان الأمر يتعلق بخسارة مشروع كبير كهذا.

حاول أبو راشد طمأنة سارة وأخبرها أن كل شيء سيكون على ما يرام

خاصة في وجودهاهي وأمها إلى جانبه فهو يتفاءل بهما ويتكل على رب العالمين في هذا المشروع وهو بالتأكيد لن يتعرض للخذلان، ثم أردف طالباً من سارة أن تضع احتمال نجاح المشروع في المقدمة وليس احتمال الفشل. فحينها ستحصل سارة وأمها على الكثير لأن المشروع لا يخصه هو شخصياً بل إن النجاح سيعود على جميع أفراد الأسرة. ظهر أبو راشد غير مستجيب لأي ملاحظات أو احتمالات أخرى غير نجاح المشروع بشكل مؤكد، وبالتالي أوقفت سارة وعليا أية محاولات لإثناء أبي راشد عن قراره بالدخول في هذا المشروع ومن شدة قناعة أبي راشد الراسخة به، أوشكتا على الاقتناع بأن الأمور ستجري فعلاً نحو نجاح المشروع وتحقيق المرابح الكبيرة التي تعني ارتقاء كبيراً في حياة العائلة.

تناول أبو راشد فطوره مع عائلته، ثم خلد للراحة قليلاً، بعد أن أخبر زوجته وابنته عن عزمه الذهاب إلى أخيه أبي سالم بعد أن يأخذ قسطاً من الراحة، فقابلته الاثنتان بالترحاب بهذه الفكرة وقررتا مرافقته في هذه الزيارة كي تطمئنا على أم سالم والبنات. ظهرت السكينة وكأنها حلت على العائلة بعد أن أشبعوا قضية المشروع نقاشاً فيما بينهم، و كأنّ الجميع تعبوا من هذا الحوار الذي لم يفلحوا فيه بالوصول إلى نتائج ترجى، ففضل الكل الانشغال بأمور أخرى وترك الأمور تأخذ مسارها الطبيعي متأملين بالخير إذ لم يكن أمامهم سوى هذا الخيار.

نام أبو راشد قليلاً، وعندما استيقظ كانت زوجته عليا قد جهزت إبريق الشاي الخمير الذي يحبه أبو راشد، حيث شرب الجميع الشاي مع القرفة، وهم يتحدثون عن الجو اللطيف في هذا الوقت من العام، وعن ضرورة الذهاب في يوم عطلة إلى المزرعة يقضونه من الصباح حتى المساء. كانت رائحة القرفة تعبق بالمكان وتختلط برائحة البخور الذي تحرص عليا على حضوره في منزلها بشكل دائم، وبينما ذهبت عليا وسارة لتجهيز نفسيهما من أجل مرافقة أبي راشد إلى بيت أخيه، استرخى أبو راشد على الأريكة مستسلماً لتلك الروائح الطيبة التي لطالما عشقها، ثم أطلق العنان لمخيلته وراح يتصور المراحل القادمة التي سيحقق فيها الكثير من المرابح بعد نجاح المشروع، ثم تصور ردة فعل جميع الذين عارضوا قراره بمشاركة إسماعيل الغريب في هذه الخطوة، قائلاً في نفسه باعتداد: لا شك سيخجل كل من عارضني عندما يشاهد علامات النجاح تظهر منذ الأشهر الأولى لانطلق شركة الاستيراد والتصدير.

-11-

وصل أبو راشد مع زوجته عليا وابنته سارة إلى بيت أخيه أبو سالم، وما إن سمعت البنات صوت ينادي عليهن، حتى خرجن بسرعة مرحبات بزيارة سارة التي ينتظرنها بفارغ الصبر. كانت مريم صديقة سارة المقربة،

في مقدمة المرحبين، فراحت تنتظر اللحظة التي نتهي فيها طقوس الاستقبال، حتى تخطفها وتجري بها إلى الداخل لتبدأ الاثنتان جلستهما المعتادة في الحديث والبوح بالأسرار والهواجس. سارة ومريم شكلتا ملاذاً لروحيهما التائقة للاطمئنان والسكينة، ولم تكن سنوات الصبا تمنعهن من العودة إلى لعب الأطفال التي كانوا يمارسونها في فناء المنزل. وفي الوقت الذي ذهبت فيه عليا مع أم سالم إلى الداخل، انفرد أبو سالم بأخيه أبي راشد في المضافة، فجلس الاثنان يحتسيان القهوة كمقدمة لأحاديث تشغل بالهما بعد انقضاء هذه مدة ليست قصيرة منذ اللحظة التي طرح فيها إسماعيل الغريب مشروعه التجاري ثم غادر على أن يعود بعد شهر من ذلك التاريخ. لقد حسم أبو سالم قراره برفض المشاركة في المشروع، وفي الوقت نفسه قرر ألا يؤدي ذلك إلى خلاف مع أخيه أبي راشد، فقرر أن يناقش الأمر بهدوء من دون إلحاح على إسداء النصيحة، فهو يعرف طبيعة أبي راشد جيداً ويتمنى أن ينجح المشروع حتى لو كان في ذلك إثباتاً لوجهة نظره الخاطئة، لأن نجاح أخيه يعتبر بالنسبة إليه نجاحاً له.

بارك أبو سالم لأخيه قراره بالدخول بالمشروع الجديد وتمنى عليه أن يكون حذراً ودقيقاً في اتخاذ القرارات ومتابعة الأوراق الرسمية حتى لا يقع فيما لا تحمد عقباه. وفي المقابل وعده أبو راشد بتوخي الحذر والحرص الكبير على النجاح لأن ذلك سيعود على جميع أفراد العائلة بالخير والبركة. كانت جلسة عاطفية أكثر منها منطقية، فقد اختار

الأخوان أن يتضامنا ويتعاملا كرجل واحد حتى لو كل واحد منهما برأي مختلف. فالتجارة لا يمكن أن تتغلب على رابطة الدم التي تربطهما، هكذا كان الاثنان مقتنعين رغم أنهما لم يفصحا عن ذلك بشكل مباشر.

كان يوماً عائلياً بالنسبة للأسرتين بعد فترة من الاضطراب والقلق، فقضى أبو راشد مع زوجته وابنته معظم الوقت عند أبي سالم وعائلته، فتناولوا الغداء وشربوا القهوة العربية وتمتعوا بتذوق تمر الرطب المقطوف حديثاً. في ذلك اليوم ظهرت العلاقة قوية جداً بين مريم وسارة، فكل واحدة منهما باحت للأخرى بالهواجس التي تنتابها في حياتها ومستقبلها، لكن مريم كانت أكثر استقراراً من سارة التي تعاني الكثير من الانقلابات المحتملة نتيجة مشاريع أبيها المنتظرة. كانت أخوات مريم الصغيرات اللواتي يلعبن بجانبهما بينما تنهمكان بالحديث بصوت منخفض، يتمنين لو يعرفن ماذا يدور بين سارة ومريم من أحاديث، لكن فارق الزمن بين الأخوات كان أكبر من أن تخبرهما سارة ومريم بما يجري حقيقةً من أحداث. القصة نفسها تقريباً كانت تجري بين أم سالم وعليا زوجة أبي راشد، فالاثنتان كانتا تمتلكان الهواجس نفسها، لكن عليا كانت تواجه اختباراً أشد خطورة من أم سالم التي حسم زوجها الأمر بالنسبة للمشروع، في كل الأحوال، أيقنت الاثنتان أنه لا مهرب من القدر، وأن ما هو مكتوب على الجبين لابد أن تراه العين. هكذا شكلت القناعات القدرية نوعاً من التسليم بما تحمله الأيام القادمة من تفاصيل

لا يمكن لأحد أن يحذر ماهيتها ولا ما تحمله من مفاجآت.

بعد أن تناولت العائلتان الغداء وأمضيتا وقتاً طويلاً في تناول الأحاديث العامة وارتشاف القهوة والشاي، كان المساء قد بدأ يرخي ظلاله على بيوت القرية، وكانت أغاني الصيادين العائدين من عرض البحر، تصل أصداؤها إلى الأهالي المشغولين بتجهيز محلاتهم واختتام أعمالهم استعداداً لاستقبال المساء. اعتذر أبو راشد عن حضور مجلس القرية في ذلك المساء معللاً ذلك بالتعب من السفر وحاجته للنوم مبكراً خاصة أنه لا جديد سيشهده المجلس في ذلك اليوم، وبالطبع لم يعترض أبو سالم على ذلك بل وافق أخاه طالباً منه الخلود للراحة والنوم مبكراً لأن الغد لابد أن يكون أفضل بالتأكيد. لقد أطلعت سارة ابنة عمها مريم على ما كتبته من أشعار خلال الفترة الماضية، مستفيدة من القراءات الكثيرة التي لجأت إليها في مكتبة المنزل التي أسسها والدها طيلة السنوات الماضية. كانت سارة تظهر صاحبة مستقبل أكبر مما يرسم لها في إطار المشروع التجاري الذي جاء به إسماعيل الغريب، لكن الأحداث المتفاعلة لم تكن تحت سيطرتها فشاءت أن تترك الأمور تجري كما هو مرسوم لها لأنها أدركت أنه لا مجال للتدخل بشكل فعال لإجراء أي تغيير خاصة أن أباها حسم أمره ولم يعد يقبل النقاش في هذا الموضوع.

عاد أبو راشد مع عائلته إلى البيت، وكانت الشمس تكاد تختفي وراء

قمم الجبال التي يعشقها كثيراً، فتوقف على جانب الطريق، ثم طلب من عليا وابنته سارة أن تشاهدا هذه اللحظة الكونية النادرة التي تختبىء فيها الشمس وراء الجبال البعيدة آخر النهار من جهة الغرب، تاركة ألواناً بديعة من الأحمر الممزوج مع الزرقة وبعض بياض الغمام، لتعاود الظهور في فجر اليوم التالي من الجهة المعاكسة مختارة الإطلالة من خلف البحر. كان أبو راشد يقول بصوت مسموع: سبحان الله، ويطلب من عليا وسارة أن تحدقا جيداً في هذا المشهد الذي يحمل في خباياه الكثير من الأسئلة والإجابات في وقت واحد. لقد امتلك أبو راشد ذلك الحس العاطفي الذي جعله جذاباً للآخرين بشكل دائم، وكان من الواضح أن سارة قد ورثت كل ذلك عن أبيها وقد دعمته بالثقافة والقراءات التراثية التي زخرت بها مكتبة المنزل. لقد اكتشفت ماذا يعني هذا المشهد لوالدها الذي رباها على استقبال العالم بشكل شاعري فيه حس الإبداع والتأمل الجميل لروعة الخالق، ولهذا كان طبيعياً أن تهرع إلى القلم والورقة منذ اللحظة التي وصلوا فيها للمنزل، لتكتب انطباعاتها الشعرية على شكل قصائد ستكون رصيدها في المستقبل.

بقيت أيام معدودة حتى يرجع إسماعيل إلى القرية حسب الموعد المتفق عليه، وكان أبو راشد قد أعد العدة وجمع كل المعلومات من أجل الجلوس مع إسماعيل ووضع النقاط على الحروف قبل بدء مشروعه الجديد، كان يعرف أن قد يضطر إلى بيع البيت والمزرعة من

أجل تجميع رأس المال الكافي للبدء بالمشروع، لكن ذلك لم يكن ليثنيه عن قراره بعد أن ولدت لديه ثقة كبيرة بالنجاح وتعويض كل شيء في المستقبل. لقد اتصل بالعديد من التجار في الآونة الأخيرة واستطاع الحصول على موافقتهم بتزويده بالمبالغ المطلوبة مقابل رهن المزرعة والبيت لفترة معينة من الزمن ريثما ينطلق المشروع ويتمكن من تسديد ما عليه من أموال بعد البدء بجني الأرباح المنتظرة، كان أبو راشد يمتلك الكثير من الثقة الزائدة في نفسه، وهو ما دفعه إلى رسم مخططات أكبر من امكانياته في الواقع، لكن الثقة ذاتها كانت تقول له أن يكمل الطريق لأن النجاح المنتظر سيعوض كل شيء لاحقاً وسيتمكن من قلب حياة عائلته جذرياً.

-12-

استيقظ أبو راشد مبكراً في ذلك اليوم الذي يسبق موعد عودة إسماعيل إلى القرية بعدة أيام. كان مشتاقاً لرؤية شروق الشمس من وراء البحر باتجاه كبد السماء، لذلك قرر الخروج مشياً على الأقدام باتجاه الطريق الترابي الذي يمشي على أطراف القرية باتجاه التلال المجاورة التي تستقبل أولى خيوط الشمس. كانت النباتات البرية قد بدأت باستقبال الإشارات الأولى للضوء، وأصوات الطيور تضفي على المشهد سحراً امتلكته تلك الكائنات اللطيفة التي تسعى وراء رزقها في

بلاد الله الشاسعة قانعة ومتأكدةً من نيل نصيبها من البذور والأوراق الخضر. لطالما سحر هذا المشهد أبا راشد وجعله يصاب بالإدمان على مشاهدته كل صباح. مشى أبو راشد مطولاً بين المنعطفات والمنحدرات الصخرية كأنه يتأكد أن كل شيء مازال على ما يرام كما ألفه طفلاً صغيراً حفظت خطواته تلك الأراضي الطيبة التي صنعت شخصيته وترك بصماتها بشكل واضح على تفكيره ومخيلته. استنشق أبو راشد بكل قوته الهواء النقي، وكان يشعر أن أوكسجين العالم يجتمع في رئتيه قبل أن ينطلق إلى دماغه ليزيده صحوة وحكمة. وعندما أنهى جولته تلك في الاطمئنان إلى الطبيعة وتجديد العهد معها، عادة أبو راشد إلى المنزل حيث كانت رائحة القهوة العربية تعبق في غرفة المعيشة التي يعتبرها الأكثر تلقائية وبساطة في المنزل. لقد أعدت عليا صحن التمر الرطب مع فناجين القهوة الساخنة بعد أن أوقدت البخور في مدخل المنزل. حينها ظهرت الحياة بسيطة بالنسبة لأبي راشد وهو يدخل المنزل ويتلقف كل ذلك وهو يشعر بحدوث فتح عظيم يشم رائحته ويكاد يتحسسه بأصابعه ويتلمس وجهه. الحياة ظهرت جميلة وبسيطة في آن واحد أمام عينيه.

أرادت عليا أن تظهر لزوجها أنها معه فيما أراد، فهما شريكان في الحزن والفرح، والخسارة والربح، لذلك لم تشأ أن تتحدث بأي شيء مع زوجها المنهك بالأسئلة والقلق، بل عمدت إلى دعوته لتناول فنجان

قهوته المفضل مع حب الهال، ثم ناولته حبة من الرطب المقطوف من نخلة المزرعة التي طالما عشقها أبو راشد. هكذا ظهرت الدنيا مليئة بالنعم أمام العاشقين الذين راحا يشيخان معاً على أمل رؤية شبابهما في ابنتهما الوحيدة التي كانت تغلق عينيها متظاهرة بالنوم، لكنها كانت أشد يقظة من أية ليلة أخرى.

ربما كان يجدر بنا الاعتناء بتفاصيل الحياة منذ زمن بعيد. قالها أبو راشد لزوجته عليا وهي تنهي ترتيب الصحون أمام زوجها وعلى وجهها تظهر علامات الحب. ظهر الاثنان وكأنهما قد استفاقا من كابوس منعهما من التمتع بكل هذا الجمال الذي وهبه الله للإنسان في الحياة. لقد تحول الاثنان إلى فيلسوفين ينبشان الماضي ويستعيدان اللآلىء منه، كأن هذه اللحظات غربلتهما وأبقت على حبات الذهب النادرة في عجينة كل واحد منهما. كانا أكثر انسجاماً واتحاداً من أي وقت سابق، كانا يوشكان على الانهمار عندما يحدقان ببعضهما ثم يوجهان النظر باتجاه النوافذ التي بدأت باستقبال انعكاسات الضوء المتسلل من نور الشمس البعيد. تحدث أبو راشد لزوجته عليا عن الأيام القادمة وكيف سيتمكنان من شراء منزل في المدينة وافتتاح تجارة إضافية في عدة أماكن. قال لها إنه سيعلم سارة التجارة والإشراف على الأعمال المتعلقة بها كي ترث إدارتها القادمة ، وعندما يطعن السن بهما، سيتفرغ للزراعة والعيش في البراري ومصادقة النباتات والأشجار،

كان أبو راشد يحلم برؤيا كاملة من الحياة المستقبلية الخالية من المعاناة، وعندما يتحدث لزوجته عليا عما يشعر به ويفكر فيه، لا تفهم عليه ماذا يقصد بالضبط، لكنها تجاريه وتؤكد له أن المستقبل سيلبي جميع الطموحات التي حملناها طيلة السنوات الماضية. لم يشأ أحدهما أن يعكر صفو الآخر، بل قررا التلاشي ببعضهما والاتحاد لأن المرحلة بدت حاسمة لا تقبل التهاون أو التلكؤ، كانا يشعران بالكثير ولا يقدران على تفسير سوى القليل، وربما هذا ما زاد من سعادتهما وهما يشاهدان سارة وقد اختارت ركناً في آخر غرفة المعيشة كي تنام فيه خارج غرفتها المعتادة في ذلك اليوم. الجميع كان يشعر بأهمية أن يكونوا معاً لأن مصيرهم مشترك لا يقبل التجزئة.

ذكّر أبو راشد زوجته عليا بسنوات زواجها الأولى، وكيف بنيا حياتهما لبنة لبنة، استرجع معها كيف شقيا حتى اشتريا المزرعة والبيت، ثم تذكرا الصفقة الأولى التي بدأها أبو راشد في التجارة، كانت المرابح صغيرة والآمال كبيرة، وكلما استعاد أحدهما قصة من الماضي، هرع الآخر لتذكيره بحكاية موازية تضاهيها أهمية، كأنهما كانا يتنافسان في استفزاز المخيلة وإحياء التاريخ من أجل إثبات ارتباطهما الأزلي، كانا يحتاجان تلك المصارحات العاطفية البعيدة عن الحسابات التجارية التي أرهقهم بها المشروع الجديد ، كانا بحاجة لتصدير الحزن والتشاؤم واستيراد الفرح حتى لو كان من الأيام الغابرة التي كانت فيها

الحياة بسيطة لا تحتمل كل هذه المعاناة والتفكير.

غسل الطرفان همومهما في تلك الليلة، وأعادا شحذ الذاكرة مع العزيمة والإصرار، وكلما فرغ فنجان القهوة وخفت رائحة البخور المتصاعدة من المدخل، أشار إليها أبو راشد أن توقد تحت المصب وتعيد إشعال عيدان البخور، فالليلة استثنائية كأنها خلاصة كل ما صار وما سيصير في المستقبل. بينما كانت سارة تتلقف كل شيء بعينين مغمضتين وقلب مفتوح الأبواب، لقد فكرت أن تنهض وتمسك القلم وتبدأ بالكتابة بناء على حالة الانفعال الكبيرة التي انتابتها، لكنها لم تشأ أن تقطع سيل المشاعر والأفكار الذي ينهمر مثل السيل على والديها وهما يستجمعان الماضي والمستقبل في جلستهما تلك. مجموعة كبيرة من التفاعلات حصلت وصار من الصعب اللحاق بها بالنسبة لعليا، فاستسلمت إلى النوم وهي تقبض على المشاعر والأفكار بكلتي يديها، كأنها تخشى من فقدان شيء لا تعرف ما هو بالضبط.

طلب أبو راشد من عليا أن يخرجا إلى فناء المنزل ليمشيا قليلاً تحت ضوء القمر الذي كان يتسلل خلسة من وراء الغيوم، لم يكن بزوغ الفجر قد بدأ بتعكير الصورة البديعة التي تحملها السماء. حيث راحا يعيدان شريط الذكريات ويبنيان عليه مشاهد قالا إنها ستكون أكثر تشويقاً وسعادة. تشابكا في الأيدي كأنهما يلتقيان للمرة الأولى، ثم سارا

باتجاه أحواض الورد التي تزين المنزل، فقطف كل منهما زهرة للآخر، وضحكا من كل قلبيهما وهما يتصوران نفسيهما كمراهقين يعيشان حالات الحب للمرة الأولى. تذكرا كيف تعاهدا على البقاء سوياً إلى أن يشيخا ويطعنا في السن، ثم استعادا الرسائل الأولى التي كتبها كل منهما بكثير من المعاناة والشوق، لم يستطع أحد منهما أن يفسر ذلك البركان الذي انفجر وراح يتدفق بالمشاعر والحنين، كانا مستسلمين لحالة الاستقرار التي داهمتهما بعد طول اضطراب وخوف. وكلما كانا ينظران نحو السماء ليشاهدا الشكل الجديد للقمر مع الغمام العابر باتجاه الشرق، كانا يريان عيناً تراقبهما من السماء، أو قلباً مرسوماً على شكل هالة من الضوء، إنها حالة مستعصية على التفسير سادت في تلك الليلة، كأنها صحوة أو مطرة مفاجئة داهمتهما كي تغسلهما وتعيدهما نقيان مشعّان كضوء القمر.

الفصل الثالث

عاد إسماعيل إلى القرية بعد شهر حسب الموعد، وتوجه مباشرة إلى بيت أبي راشد قبل أن يذهب لأي أحد آخر، كأنه أدرك أن غايته تكمن عند هذا الرجل الذي ظهرت عليه منذ اللحظة الأولى علامات القبول بالمشروع رغم أنه لم يفصح عن ذلك. حرص إسماعيل أن يظهر كالأثرياء، فاعتنى بمظهره وهندامه بشكل لافت، كما حمل الكثير من الهدايا لأبي راشد وعائلته. ولم يكد يتوقف بالقرب من البوابة حتى ظهر أبو راشد وهو يفتح المنزل مرحباً بقدوم إسماعيل ومعاتباً إياه على ما يحمله من هدايا كثيرة لم يكن هناك من داع لها.

سار الاثنان باتجاه المضافة في الداخل، وهما يتبادلان عبارات التودد والاطمئنان على بعضهما، كان الوقت ظهراً، ومعظم الناس في أعمالهم المعتادة، إلا أن أبا راشد الذي فضل البقاء في المنزل وانتظار لحظة وصول إسماعيل من أجل الاتفاق وحسم تفاصيل المشروع والشروع به في أقرب وقت ممكن. كان الإثنان بعجلة من أمرهما في البتّ بالمشروع واتخاذ القرارات، فبعد أن تناولا فنجانين من القهوة

العربية التي تبقى ساخنة وجاهزة من أجل الضيوف، حتى بدأ إسماعيل الحديث عن أهمية المشروع وجهوزية الانطلاق به إذا ما قرر أبو راشد المشاركة مع أخيه . لكن أبا راشد أخبره بأنه سيشارك لوحده لأن أخاه لم تعجبه الفكرة ولم يشعر بالحماس لها. أخرج إسماعيل مجموعة من الأوراق الرسمية التي لابد من تجهيزها من أجل نيل التراخيص المطلوبة، ثم شرح لأبي راشد كيف عثر على مركب معروض للبيع في الساحل القريب من قريته، وقال إن سعره يعتبر لقطة لأن صاحبه مضطر للبيع لتسديد التزامات كثيرة عليه للتجار. كان إسماعيل ينهمر بأفكاره على مسامع أبي راشد بشكل سريع وكثيف، حتى إن أبا راشد طلب منه التروي ومناقشة كل فكرة لوحدها بشكل منتظم كي لا تضيع منهما التفاصيل وتحصل فوضى أثناء الإعداد للمشروع. ظهر إسماعيل وكأنه تدرب على الحديث مراراً وتكراراً، وقد أعد سلفاً الإجابات التي يمكن أن يطلبها أبو راشد حول هذه النقطة أو تلك. أخبره أن لديه معارف يمكن أن يساعدوا في تسريع الحصول على الأوراق الرسمية خلال أيام، ريثما يذهبان إلى القرية التي سيشتريان منها المركب لمعاينته معاً واتخاذ القرار بالشراء. حرص إسماعيل على تذليل جميع الصعاب المتوقعة بحلول أعدها مسبقاً، بحيث لم يبق أمام أبي راشد إلا أن يعطي إشارته بالموافقة من أجل الانطلاق بالعمل، خاصة أن المركب المعروض للبيع يعمل بالتجارة عبر البحر ويمكن الاستفادة من بحاريه وخبرة +النوخذة (القبطان) في الإبحار ومعرفة الخطوط

التجارية، لهذا أكد على أبي راشد ضرورة تجهيز المال والإسراع بشراء المركب حتى لا يسبقهم إليه أحد. كان المبلغ المطلوب لشراء المركب كبيراً جداً فاجأ أبو راشد الذي لم يتوقع هذه التكلفة، فما يمتلكه من مال لم يكن يكفي ربع المبلغ المترتب عليه أما النصف الآخر فيقع على عاتق إسماعيل الذي قال إنه جاهز تماماً للدفع من أجل شراء المركب كخطوة أولى مع البدء بالعمل على شراء ونقل البضائع .

فكر أبو راشد ملياً في كيفية تأمين المال اللازم للبدء بالعمل، ولاحظ إسماعيل علامات الحيرة على وجهه، فاقترح عليه أن يستدين من معارفه التجار في القرية ويعدهم بإيفائهم المال خلال الأشهر الأولى من انطلاق العمل لأن المرابح مؤمنة ويمكن تسديد المبالغ على أقساط بكل سهولة ويسر. طلب أبو راشد من إسماعيل أن يمهله بعض الوقت من أجل تأمين المبلغ وأن يشرع بالحصول على الأوراق الرسمية ريثما تصبح الميزانية جاهزة. ظهر من خلال الحديث أن الرجلين اتفقا على كل شيء ولم يبق سوى توقيع العقد عند كاتب القرية الذي سيزورانه مساءً من أجل هذا الأمر. تنهد أبو راشد بعد وقت طويل من النقاش وقال: على بركة الله. بينما كانت عليا تطرق على الباب إشارةً بأن الغداء أصبح جاهزاً. تناول الرجلان طعام الغداء ثم اقترح أبو راشد على إسماعيل أن ينام في المزرعة ريثما يتم إنهاء التفاصيل المتعلقة بالعمل الجديد وتأمين رأس المال اللازم لشراء المركب حيث سينطلق

الاثنان إلى القرية الساحلية حيث يرسو المركب .

بعد أن سدد الرجلان جميع النقاط التي تحتاج إلى اتفاق، خرج أبو راشد مع إسماعيل باتجاه المزرعة كي يترك الضيف يأخذ قسطاً من الراحة، ثم عاد إلى المنزل بعد أن اتفقا على اللقاء مساء من أجل الذهاب لكاتب القرية . ظهر أبو راشد متفائلاً وهو يخبر زوجته عليا وابنته سارة عن فحوى اتفاقه مع إسماعيل وقرب انطلاقهما في المشروع المنتظر، ولم يكن من الاثنتين إلا أن تمنيتا النجاح والتوفيق لهذه الخطوة التي يبني عليها أبو راشد الآمال الكبيرة.

في اليوم التالي، بدأ إسماعيل بتجهيز الاوراق المطلوبة واحتاج إلى توقيع أبي راشد فذهب إليه في المنزل وذهب الاثنان من أجل استكمال الأوراق والبيانات، تولى إسماعيل في هذه المرحلة دفع المبالغ المالية المترتبة ولم يطلب من أبي راشد أي شيء، وقد بقيت بعض الأوراق بحاجة لاستكمال في اليوم التالي، بينما قام أبو راشد بزيارة أخيه أبي سالم واستدان منه بعض المال، ثم أكمل طريقه نحو تجار القرية فجمع منهم المبلغ المستحق، لكنهم طلبوا رهن بيته ومزرعته ضماناً لأموالهم في حال لم يسددها في الوقت المطلوب. في طريق عودته للبيت، ذهب أبو راشد لرؤية إسماعيل في المزرعة، حيث سلمه المال، وطلب منه أن ينطلق في الصباح الباكر من أجل شراء المركب قبل

فوات الأوان. لم يصدق إسماعيل أن الأمور جرت معه بهذه السهولة، فهرع مغادراً القرية قبل أن تبزغ الشمس.

-2-

بدأ أبو راشد بالدعاية لعمله الجديد، فأخبر التجار أن بإمكانهم من اليوم إرسال بضاعتهم من ميناء القرية باتجاه البلدان المجاورة، كما شرع يجري المداولات مع التجار حول المواد التي يمكن أن يشتريها من أجل تسويقها في الخارج وجني الأرباح المنتظرة. كان أبو راشد طيلة الأيام التي تلت رحيل إسماعيل، مليئاً بالحيوية والتفاؤل، فقد استطاع الحصول على عقود بحمل عشرات الأطنان من المواد، كما حجز على حمولات ضخمة من البضاعة ودفع جزءاً بسيطاً من سعرها سلفاً من أجل أن يتم نقلها إلى المركب ساعة وصوله إلى القرية.

جميع المقربين من أبي راشد تفاءلوا بالخير وتمنوا له التوفيق في عمله الجديد، لكن أبا سالم ظل قلبه مقبوضاً كأنه ينذره بالكارثة القادمة، خاصة بعد أن علم أن أبا راشد سلم الأموال إلى إسماعيل وتركه يذهب وحده كي يشتري المركب. كان الأمر مريباً وغير منطقي بالنسبة إليه، واستغرب من قيام أبي راشد بهذه الخطوة البعيدة عن خبرة التجار في العمل ومتابعة أمورهم التجارية. لكن أبا سالم آثر الصمت حتى

لا يتسبب بإخافة أخيه لكنه صارح زوجته بهذه الهواجس التي تنتابه منذ اللحظة التي غادر فيها إسماعيل القرية محملاً بأموال المشروع المنتظر. مضت عدة أيام ولم يظهر المركب ولا إسماعيل ولم يصل لأبي راشد أي خبر عنهما. وكلما كان يمضي يوم كان أبو راشد يطمئن نفسه بأن الوقت مازال مبكراً للقلق فالعملية لابد تستغرق وقتاً حتى يتم شراء المركب ومن ثم إبحاره حيث المسافة طويلة وتتطلب وقتاً لا يستهان به.

ظل أبو راشد يختلق الأعذار ويهدىء من روعه طيلة شهر كامل من غياب إسماعيل دون أن يظهر أي خبر عنه. وكان يشاهد ملامح القلق في عيون زوجته وابنته وعائلته وأخيه أبي سالم الذي جزم بأن مصيبة ما قد حصلت وأن أخاه أبا راشد قد تعرض للنصب والاحتيال من قبل إسماعيل الذي أخذ الأموال واختفى بغمضة عين. لم يعد أبو راشد يحتمل الانتظار، وكان يصل الليل بالنهار وهو ينتظر نبأ وصول المركب بلا فائدة، بل إنه في كثير من الأيام كان يذهب مشياً على الأقدام باتجاه الشاطئ ويسأل البحارة والصيادين إن كانوا قد رأوا إسماعيل أو سمعوا عن مركب جديد يتجه إلى القرية، لكنه لم يحصل على أية إجابات، كأن البحر ابتلع إسماعيل في أعماقه ولم يسمع أحد به.

شهران كاملان مضيا وأبو راشد مازال يمني نفسه بقرب وصول إسماعيل،

لكن ذلك لم يحدث للأسف، فقد فاض الكيل به ولم يعد يطيق الانتظار لحظة بعد اليوم، فحزم أمره وقرر أن ينطلق باتجاه قرية إسماعيل البعيدة حيث يفترض أن يتواجد من أجل شراء المركب، كان يعرف في قرارة نفسه أن مصيبة حلت به، لكنه كان يستبعد كل الأفكار السوداوية ويحاول أن يختلق الأعذار لغياب إسماعيل، ويقول في نفسه من يدري ربما حصل معه أمر مفاجئ أخّر رجوعه حسب الاتفاق. شعر أبو راشد أن مشهد الطريق الذي كان يعشق التأمل فيه أثناء السفر قد تغير عن السابق كثيراً، فالجبال كانت كالحة كأنها متشحة بالسواد، ولم يتمكن من مشاهدة غروب الشمس نظراً للعاصفة الغبارية التي فاجأته في الطريق. لقد فسر كل هذه الكارثية في المشهد على أنها نذر شؤم يشير إلى الفجيعة التي سيتعرض إليها إذا ما صدقت هواجسه، لكن الخيارات أمام أبي راشد كانت محدودة بعد أن وثق بإسماعيل وسلمه المال وتركه يذهب منفرداً من أجل شراء المركب. ساعات طويلة قضاها أبو راشد على الطريق شعر وكأنها أيام طويلة تمر قاسية عليه، وعندما لاحت في الأفق قرية إسماعيل من بعيد، تنهد الصعداء وتمنى أن يكلل هذا السفر بالخير والأنباء السارة التي تعيد لنفسه الاستقرار. وصل أبو راشد إلى سوق القرية، وسأل عن الدكان الكبير الذي يملكه إسماعيل حسبما أخبره بذلك، لكن أحداً لم يسمع بإسماعيل ولا بأملاكه كالذي يتحدث عنه، أصيب أبو راشد بالصدمة، وبدأ يضرب أخماساً بأسداس ولا يعرف ماذا يتصرف وهو في قرية غريبة لا يعرف فيها أحد، فقرر الذهاب من

أجل السؤال عن مركب ضخم معد للبيع وعن إسماعيل الذي يفترض أن يشتريه، لكنه قوبل باستغراب الجميع لأنهم لم يسمعوا بأمر من هذا النوع. عندها أيقن أبو راشد أن الفأس قد وقعت برأسه وأن مخاوف أخيه أبي سالم قد صدقت بالفعل. كان بودّه أن يلقي بنفسه في البحر كي ينهي كل تلك المعاناة، لكن صورة ابنته سارة منعته من ذلك، كان يصف نفسه بالغبي الذي لا يفهم شيئاً بالتجارة رغم أن الجميع يسمونه كبير التجار. بكى وناح طويلاً وهو يجلس وحيداً على الشاطئ، وعندما حل الليل نام على الرمل وهو يجهش ويئن كأنه أسد جريح. في صباح اليوم التالي عاد وكرر عملية البحث في القرية وذهب إلى السوق ومجموعة من التجار فحصل على النتيجة نفسها، فلا يوجد شخص يعمل في التجارة اسمه إسماعيل ولا أثر له. كان أبو راشد أشبه بمن يطارد سراباً في صحراء. لقد نال منه التعب والإرهاق بسبب المصيبة التي حلت به، ومضى عليه يومان لم يذق فيهما الطعام، فخارت قواه وكاد أن يسقط على الأرض مغمياً عليه، لكنه تمالك نفسه في النهاية وحزم أمره بالعودة إلى القرية عساه يجد حلاً لهذه الكارثة التي شعر أنها ستختتم بنهايته. قضى أبو راشد ساعات طويلة على الطريق، وكان يضطر للتوقف بسبب الإعياء وفقدان تركيزه. تمنى لو يختفي فلا يبقى منه أثر، لكن عينيه كانتا تنهمران بالدموع كلما تذكر ابنته سارة التي لا يمكن أن يتركها وحيدة في هذه الحياة، حتى أمنيته بالموت لم تكن متاحة أمامه كما يرغب. جاهد أبو راشد كثيراً حتى وصل إلى القرية،

كانت عيناه زائغتان وقلبه ينبض بقوة، وعندما توقف أمام المنزل، فتح الباب وحاول النزول ، لكن جسمه خانه في تلك اللحظة فسقط أرضاً فاقداً للوعي. كانت عملية حمله لداخل المنزل صعبة على زوجته عليا وابنته سارة، الأمر الذي دفع عليا لأن تهرع راكضة بسرعة إلى بيت أبي سالم الذي سارع وهو يلطم على وجهه حزناً على أخيه. كانت حالة أبي راشد يرثى لها، فلم تفارقه الحمى خلال أيام، وكان أحياناً يرمش بعينيه ويتمتم بكلمات لم يفهمها أحد. وما زاد الطين بلة هو قلبه الضعيف الذي قال طبيب القرية إنه تعرض لشدة كبيرة نجاه الله منها بقدرة قادر.

تمنى أبو سالم لو يتمكن من الكذب عليه، فيقوم بإيقاظه وزف البشرى إليه أن إسماعيل قد عاد بالمركب والمال، لكن قلبه لم يطاوعه في أن يعرض أخاه لشدة أخرى، ففكر بالمبالغ الكبيرة التي استدانها من التجار والمنزل والمزرعة اللذين رهنهما مقابل هذه الديون، كان أبو سالم يدرك أنه لو باع ممتلكاته كلها لن يتمكن من تسديد ديون أخيه، لهذا كان إحساسه بالكارثة يتفاقم وظهر الطريق أمامه مسدوداً أمام أي حل.

تبلورت كارثة أبي راشد ومرضه، في عيون سارة وقلبه الذي شعرت به مكسوراً بلا جناح أو ضهر يسنده، كانت تقضي الليل بجانب أبيها وهي تمسح على جبينه الملتهب بقطع القماش البارد، ثم ترجوه أن يتناول الدواء فتساعده على رفع رأسه قليلاً ليفتح فمه ويتناول شربة ماء،

لقد لامت نفسها كثيراً لأنها لم تقف بحزم أمام إرادة أبيها في المشاركة بهذا المشروع الذي لم ترتح له منذ البداية، لكن كل هذا لم يعد يفلح في استدراك الأمر أو إعادة الزمن إلى الوراء، فأبو راشد يذوي رويداً وتتدهور حالته الصحية من دون أن يتمكن أحد من مساعدته. كانت الفجيعة أكبر من الجميع، ولهذا شعر جميع أفراد العائلة بالعجز والخذلان. انهارت سارة عدة مرات لكنها تمالكت نفسها وهي تأمل أن ترى ثانية بريق عيني أبيها يضج بالحياة والتفاؤل. لكن هذه الأمنية كان صعبة التحقق ويؤكد ذلك التدهور السريع لحالة أبي راشد الصحية، فعيناه مع الوقت أصحبتا غائرتين، وشحب لونه وأصبح وكأنه هيكل عظمي مسجى على الفراش، لا تفيده أعشاب ولا دواء ولا يسعفه دعاء. أصيبت زوجته عليا وابنته سارة بالهزال من قلة النوم والطعام، ورغم مساعدة زوجة أبي سالم لهما ووقوفها إلى جانبهما، إلا أن الانكسار الحاصل كان أكبر من أن يلتئم بالسهولة المرتجاة.

مات أبو راشد، تاركاً مجموعة كبرى من المصائب خلفه. فالديون المتراكمة والجراح التي لن تندمل، وفقدان البيت والمزرعة، كان كل ذلك ينتظر عليا وسارة في مواجهة ليستا على قدرها بعد أيام الحداد. كان أبو سالم يذهب يومياً إلى مزرعة أخيه ويمضي الساعات وحيداً، كي يتمكن من البكاء بحرية فلا يلومه أحد، كان يجهش ويصدر أصواتاً تشبه نحيب النساء، ومرات يلطم على وجهه ويحمل نفسه

مسؤولية ما جرى لأنه لم يتدخل ويمنع أخاه بالقوة من الدخول في هذا المشروع مع ذلك النصاب الغريب. لقد انقلبت حياة الأسرة إلى بيوت عزاء، وصار واضحاً أن كل ذلك لن ينفع باستعادة أبي راشد أو تعويض الأملاك التي ضاعت أدراج الرياح. فالتجار الذين دينوا المال لأبي راشد لابد أن يطالبوا بحقوقهم لاحقاً، وهو دفع أبو سالم إلى حل وحيد يقضي بتجهيز ركن من منزله يخصصه لسكن زوجة أخيه وابنته، وتولي مسؤولية رعايتهما وتقديم طلباتهما حسبما تقتضي الأعراف، وكانت زوجته أم سالم ابنة الأصول، أول من شجعه على ذلك فهي لن تقبل بترك المرأتين وحيدتين تصارعان قساوة الظروف وهما لا تمتلكان لا منزلاً ولا مزرعة ولا أي شيء. شكل خطأ أبي راشد كارثة بالمعنى الحقيقي على جميع المقربين منه، واستغرب أهل القرية وقوعه في هذا المطب وهو الخبير بأحوال التجارة والناس وقادر على اكتشاف خفايا الرجال منذ النظرة الأولى، لكن آخرين قالوا إن غلطة الشاطر بألف، وإن ما حصل مع أبي راشد رحمه الله لابد وراءه حكمة من رب العالمين يريد إيصالها للناس. انتهت أية فائدة للكلام بعد دفن أبي راشد ومضي أيام طويلة على رحيله. حيث صارت زوجته وابنته تقضيان الوقت وهما تذرفان دموع الحسرة ولا تواسيهما سوى زيارات أم سالم المتكررة مع نساء القرية، اللواتي راح عددهن يقل مع مضي المزيد من الزمن، لتتأكد سارة وعليا أن عليهما مواجهة الحياة بقوة توازي الصعوبات الجمة التي حصلت معهما وينتظر حصولها مستقبلاً، كان

الإيمان والصلاة سبيلهما للتخفيف عن نفسيهما قدر الإمكان، لكن الجرح المؤلم الذي تركه رحيل أبي راشد في قلب كل منهما كانت ضفتاه أوسع من أن تلتئما بهذه السرعة.

-3-

أكثر من شهرين مرا على وفاة أبي راشد، وكما هو متوقع، لم يظهر أي خبر أو علم عن إسماعيل الذي تبخر وأصبح حكايته أشبه بقصص الأشباح. لقد حان الوقت لمواجهة الحقيقة المرة، خاصة عندما بدأ التجار بفتح موضوع استرداد أموالهم مع أبي سالم، فالمبلغ كان كبيراً جداً ولا يمكن المسامحة به، وبالتالي كان لابد من اتخاذ قرار بشأن بيع المنزل والمزرعة من أجل إيفاء أولئك الناس حقوقهم. إنها الحقيقة المرة الثانية التي تعصف بعليا وسارة، حيث سيفقدان بيت الأسرة وهو الشيء المتبقي لهما من أبي راشد الذي أفنى عمره وهو يعمر ويبني ويزرع الأشجار كي يصل إلى مرحلة لا تحتاج فيها أسرته شيئاً إلا وتجده حاضراً لديها. كانت أسرة أبي راشد تشعر بالفداحة الهائلة التي تعرضت لها، فتكاد عليا وسارة تفقدان عقلهما. لقد أصبحتا في الشارع ولابد من إيجاد مأوى ومصدر عيش لأن الإغراق في الحزن لن يغير من الواقع شيئاً. أخبر أبو سالم التجار الذين فاتحوه بموضوع استعادة أموالهم، أن يمهلوه بعض الوقت كي يؤمن أحوال

أسرة أخيه، وكان قد بدأ بعد أيام من رحيل أبي راشد بتجهيز غرفة مستقلة لزوجة أخيه عليا وابنتها سارة، من أجل أن يعيشا معهم في المنزل، فلا خيارات أخرى تبدو منطقية في هذه المرحلة، ريثما يتمكن من شراء منزل مخصص لهما. كانت الغرفة مستقلة عن المنزل مع متطلباتها كأنها شقة منفصلة، وقد عمد أبو سالم إلى استئجار عمال بناء من أجل تجديدها فظهرت بيتاً ثانياً بجانب بيت أبي سالم. بعد أن أنجز كل ذلك واطمئن أن المكان أصبح جاهزاً، بادر إلى فتح الموضوع مع زوجة أخيه عندما زارها مع زوجته أم سالم، فأخبرها بأن التجار يطلبون استرداد أموالهم التي استدانها أبو راشد، وذلك عبر بيع البيت والمنزل بعد أن رهنهما أبو راشد للتجار كضمانة لاسترداد أموالهم. تحدث أبو سالم مطولاً عن الحياة وصعوباتها وطلب منهما ألا تخشيان من غدر الدنيا طالما هو موجود بجانبهما، ثم أكد لهما أنه سيخصصهما ببيت لهما من ماله الخاص عند أول فرصة، وأنه حتى يحين ذلك الوقت، فيمكنهما المكوث في منزله بعد أن أعد لهما غرفة واسعة مع متطلباتها بحيث أصبحت عبارة عن بيت صغير بجانب بيته. لم يكن أمام عليا وسارة خيار إلا الموافقة على العرض، وقد تأملتا بأن تخفف أسرة أبي سالم عنهما الألم بوجود أم سالم والبنات بقربهما. هكذا مرت الأحداث بسرعة غير متوقعة حيث وجدت الاثنتان نفسيهما في منزل أبي سالم بعد أن باع التجار البيت والمزرعة لقاء أموالهم التي استدانها أبو راشد.

مضت سنة كاملة على هذا النحو، وبدأت عملية نسيان ألم الفقدان تأخذ مسارها الطبيعي كسنة من سنن الحياة، كان من لطائف القدر أن علاقة أم سالم بعليا جيدة وقوية قوامها المودة والاحترام، كذلك الأمر بالنسبة لسارة وابنة عمها مريم، وهذا ما خفف عن الجميع عبء الهموم التي تكاثرت على العائلة حتى قال بعضهم إن أسرة أبي راشد مصابة بالنحس. كان لابد للحياة أن تستمر، وقد استعانت سارة بكتابة الشعر وحرصت على نقل مكتبة والدها من المنزل لأنها كانت تراه بين الكلمات، فهو من اختار لها تلك الكتب وطلب منها قراءتها وحفظ ما يمكن من أشعار قديمة ومآثر تحكى عن العرب وأنسابهم وحضاراتهم التاريخية. كانت ثقافة سارة تتطور بسرعة كبيرة مع إصرارها على القراءة والاستماع إلى رويات الرجال الذين يواظبون على حضور المجلس في بيت عمها أبي سالم، حيث كانت تجلس في غرفة العريش القريبة من المجلس، وتنصت بكل جوارحها إلى السير الشعبية والقصص التي تشهدها القرى المجاورة إلى جانب القصائد التي تزين تلك الجلسات من أشعار عنترة بن شداد وقيس وليلى وأبي نواس والمتنبي، كما رفدت ثقافتها بالقراءات الإسلامية فتعمقت بالدين وحفظت القرآن الكريم وتفسيره، الأمر الذي جعلها محط إعجاب أهل القرية الذين كانوا يأخذون برأيها في مختلف القضايا. مضى الوقت وظهرت سارة أشد نضوجاً وذكاء وسحراً. وكانت جلساتها مع ابنة عمها مريم، مثار إعجاب البنات الأخريات اللواتي كن يحسدهن على تلك العلاقة المميزة التي

تجعل الاثنتين وكأنهما قد جبلتا من طينة واحدة. كانت مريم تشارك سارة في قراءاتها للكتب، وتحاول اللحاق بها في حفظ الأشعار والسير الشعبية وإذا ما تعرضت لأمر لم تفهمه في تلك القصائد لم تمانع في سؤال سارة عن مناسبة هذا القول وما يحمله من دلائل. تمكنت مريم من التخفيف عن سارة بشكل كبير، وكانت ترافقها في السير نحو البرية مسافات طويلة عندما تشتاق لطيف أبيها فتخرج كي تمشي على الدرب الذي كانا يمشيان فيه عندما يبدأ موسم الربيع وتشرع النباتات البرية من فوق سطح الأرض كأنها تمد أذرعها نحو الشمس. كثيراً ما بكت سارة عندما كانت تنظر إلى بيتهما الذي أخذه أحد التجار لقاء أمواله التي استدانها أبو راشد، كانت تنظر إلى البعيد وترى أباها وهو راجع من المدينة فتكاد تهرع لاستقباله في منتصف الطريق، لم تكن الخيالات تفارق سارة، لكن إيمانها ساعدها في الصبر إلى جانب مرافقة مريم لها في جميع ما تمر به من لحظات صعبة. نظرت سارة إلى وجود عمها في حياتها كتعويض عن فقدان أبيها، وكان عمها يدللها ويدعوها إلى مجالسته مع مريم التي تنال هي الأخرى مكانة كبيرة لديه. لقد ظهرت العائلة وهي مصرة على التكاتف والتعاون مع أجل تجاوز تلك المحنة التي لم تكن جراحها لتندمل بالسرعة المتوقعة، هكذا حاول أبو سالم ألا يحرمها من العادات التي دأب والدها على فعلها، فهو لا يعود من سفره إلا وحاملاً الهدايا لبناته وسارة التي أصبحت واحدة منهن، حتى تزويدها بالكتب الجديدة لم يكن ليغيب عن ذهن أبي

سالم الذي دفعته الظروف لأن يأخذ دور الأب والعم في آن معاً.

كانت عليا تشعر بالخذلان من أخيها الذي اعتذر عن استقبالها بعد وفاة زوجها وخسارة العائلة للبيت والمزرعة، وتمنت لو كان يمتلك الشهامة التي يتحلى بها أبو سالم، لكنها كانت مضطرة لاستشارته عندما تقدم لها أبو سليمان وهو من أحد المناطق المجاورة، بهدف الزواج، فأبدى موافقته لكنه اعتذر عن استقبال سارة لديه لأن منزله لا يتسع لأبنائه الكثر وزوجته كما أن وضعهم المادي لا يساعد على تكبد عناء سارة التي أصبحت صبية تحتاج رعاية وانتباه كبيرين. كانت عليا لاتزال تحتفظ بشيء من الجمال رغم تقدمها في العمر قليلاً، لكن ذلك لم يمنع أبو سليمان الذي قارب عمره من الستين، لأن يتقدم لها بعد وفاة زوجته، لكنه بالمقابل اعتذر عن استقبال ابنتها سارة لأنه غير قادر على تحمل هذه المسؤولية. طلبت عليا من أبي سليمان أن يطلبها من أبي سالم، فهو الآن ولي أمرها ويستقبلهما في منزله مع ابنتها ويبذل كل جهده من أجل إسعادهما وتأمين الحياة الكريمة لهما بعد رحيل أخيه أبي راشد. كان أبو سالم غير قادر على استيعاب مسألة زواج زوجة أخيه من رجل آخر، أما بالنسبة لسارة، فقد رفض التخلي عنها وجعلها تسكن في بيت رجل غريب قبل أن يعرف موقف أبي سليمان وأخيها من هذا الموضوع، هكذا وافق أبو سالم على زواج عليا من أبي سليمان نزولاً عند رغبتها، لكنه كان في قرارة نفسه غير متقبل للفكرة

ويعتبر ذلك نوعاً من عدم الوفاء لأخيه. أصيبت سارة بالصدمة، ولم تكن تتخيل أن أمها ستفكر بالزواج بعد أبيها وتعمد إلى تركها عند بيت عمها، مما زاد في حزنها وشعورها بفقدان الأب والأم خلال فترة بسيطة، لكن عزاءها الدائم كان بوجود مريم وبنات عمها الأخريات اللواتي كنّ يؤنسن وحدتها ويشكلن ملاذها الأخير في هذا العالم الذي قسا عليها كثيراً وهي غضة العود. ظهرت الأحداث وكأنها تجري بشكل متلاحق ومتسارع، فخلال فترة بسيطة غادرت عليا إلى بيت زوجها في القرية المجاورة، واستمرت سارة بالعيش في بيت عمها معزية نفسها بحنان أم سالم وأبي سالم عليها كأنها ابنتهما تماماً، وهو ما جعلها تشعر بالاستقرار وتصبر على ما ألحقته الحياة بها.

كانت سارة تجلس في العريش، الغرفة الملاصقة للمجلس، وتستمع إلى سير الرجال وأحاديثهم عن الشعر وقصص الأولين وبطولاتهم ومآثرهم وقصائدهم التي خلدها الدهر، فتسلي نفسها بالقراءات والجلوس مع نساء القرية عندما يجتمعن عند زوجة عمها أم سالم، فتدهش الجميع برواياتها وحفظها لأشعار القدماء وقرضها الشعر، هكذا حازت سارة مكانة كبيرة بين عائلة بيت عمها ووسط أبناء القرية الذين كانوا يتناقلون أخبارها وأحاديثها بكثير من الاهتمام والمديح. في أحيان كثيرة كانت تنتاب سارة أفكار عن السبب الذي جعل والدها يدفعها للاهتمام بالجوانب الثقافية، وتقول في نفسها إن أبي كان يريد تحقيق

ما لم يستطع تحقيقه أثناء صباه من خلالي، فالفصاحة كانت تشغله على الدوام فيسأل عن جذور الكلمات وصحيحها واختلاف اللهجات بين عرب الشمال والجنوب، ودور القرآن الكريم في توحيد اللسان العربي وكيف أصبحت تلك اللغة من المعالم الأساسية التي تجمع الشعوب مترامية الأطراف بين المحيط والخليج. كل تلك المسائل كانت تشكل نوعاً من العزاء في نفس سارة وتجعلها تتابع ما أحب والدها أن تفعله في صغرها، وكم تمنت لو أنه ما زال على قيد الحياة ليشاهد المراحل التي قطعتها في علمها وثقافتها ومكانتها بين الناس.

كانت سارة تشعر وكأنها تفي بعهد قديم قطعته لوالدها، ولهذا أصرت على الدوام على دعوة مريم للخروج إلى الأماكن كان يعشقها أبوها، وكثيراً ما كانت تخاطبه بالقول: انظر يا أبا راشد، إنني الآن أمام الصخرة التي حدثتني عنها كثيراً وتوقفنا عندها مراراً، أمسك بزهرة الشوك التي تحبها وأتذكرك وأنا بشوق كبير إليك. كانت مريم تبدو مندهشة من سلوك سارة وفي الوقت نفسه تشعر بالغرابة والإعجاب بابنة عمها الصبية التي تكبر على مبادئ وقيم وثقافة عظيمة بهذا الشكل. لم تقدر الأيام على انتزاع أبي راشد من قلب سارة، فبقي في روحها وقلبها وفكرها حياً بشكل دائم، وكانت تحرص على الاحتفال بيوم مولده، وتذهب إلى المقبرة كي تضع باقة من الزهور على قبره، وقد كانت ترى في صورة عمها وحضوره الى جانبها عزاء كبير لها في الدنيا لغياب والدها.

مضت أيام طويلة ولم تر سارة أمها، فهي لم تقم بزيارة واحدة بعد زواجها، كأن تلك المرأة اختفت مع رحيل زوجها وحبيبها الأول والد سارة، وكم كانت الابنة الحاملة لكل تلك الذاكرة الغنية التي ترفض مغادرتها، تبدو مصابة بالخذلان والغضب من التغيرات التي حصلت بعد رحيل والدها. كانت هي الوحيدة التي تعيش تلك الهواجس والذكريات بينما الآخرون يتابعون حياتهم بشكل طبيعي. عوّدت سارة ابنة عمها مريم على عشق لحظات الغروب والشروق، وكانت تشير إليها أن تحدق بالشفق المائل إلى الاحمرار المختلط بالزرقة وتركز على اللحظة التي تختفي فيها الشمس تماما وراء الجبال. ولكم انتظرت الاثنتان بعد أن أدّيتا صلاة الصبح، حتى تبدأ لحظات انبلاج الصباح فتقول سارة لمريم أن ترى جيداً اختلاف تدرجات السماء اللونية بين لحظة وأخرى. هكذا سمّت مريم ابنة عمها سارة بالمعلمة الأولى لالتقاط الجمال، فتلك المشاهد التي تتكرر يومياً دون أن يلاحظها أحد، كانت بحاجة إلى من يكتشف الرائعة التي تسحر لبّ الإنسان وتجعله أسيراً لروعة الخالق الذي أبدع هذه الطبيعة الغناء.

بدأ تقادم الأيام يهدىء من قسوته على قلب سارة، ورويداً رويداً راحت تشعر بالرضا عما تفعله لأجل أبيها وتخليد ذكراه، كان إيمانها يسير بها بكل رضا إلى قدرها المحتوم الذي لا يمكن تغييره إلا بمشيئة الخالق عز وجل. وكلما هاجت بها الذكريات وفتك بها البوح، كتبت الشعر الذي

يفطر القلوب، ولم يكن يدرك كل هذه التفاصيل سوى ابنة عمها مريم التي أصبحت جزءاً منها. كل هذا شكل نوعاً من التوازن في قلب أبي سالم، الذي لم يكن يشفى بسهولة من فقدان أخيه أبي راشد، فكان يستدعي سارة مع ابنته مريم إلى مجلسه، ويشرع بالحديث إليها وسؤالها عن مختلف الأمور التي كان يتحدث بها مع والدها، عساه يسمع نبرته ويستمع لآرائه التي حملتها سارة بكل أمانة. لقد تحول أبو راشد إلى رابط خفي بين أفراد الأسرة، فكانوا يلجؤون إلى بعضهم كلما عصفت بهم الذكريات، هكذا استطاع أبو راشد أن يصنع بموته ما لم يتمكن من فعله في حياته. وقد أدركت سارة هذه الحقيقة، لهذا كثيراً ما تساءلت مع نفسها، ترى ماذا لو عرف أبو راشد أن كل ما حلم بتحقيقه بالمال، نحققه الآن بالحب، هل كان سيقع ضحية لذلك النصاب المحتال إسماعيل؟ لكن سيف الموت كان قد سبق كل احتمال يمكن أن تصنعه سارة بمخيلتها، ولم يكن أمامها إلا الاستسلام للذكريات.

إلى جانب علاقتها مع ابنة عمها مريم، عاشت سارة علاقة مميزة مع زوجة عمها أم سالم، تلك المرأة العصامية المجبولة بالأصالة، كانت قادرة على سحر عقول نساء القرية نظراً لكبرها ورحابتها وفهمها المختلف والحكيم للأمور. لقد تجاوزت أم سالم كل القضايا الصغيرة والتفاصيل التي تشغل عادة بقية النساء، لتنغمس في دائماً في أمور أكبر وغايات أنبل وأهداف لا يسعى إليها فرد عادي. لم يكن غريباً أن

يسميها البعض سيدة القرية، فهي صاحبة مجلس أسوة بزوجها، تناقش فيه أوضاع النساء وتعالج مشاكلهن وتزودهن بالنصيحة وتنور أمامهن الطريق. لهذا فإن احتضانها لسارة كان أمراً طبيعياً يتوافق مع طبيعتها السمحاء. لقد نشأت علاقة مميزة بين سارة الابنة اليتيمة التي مات أبوها مبكراً وهجرتها أمها بسبب الزواج من رجل غريب، لتصبح أم سالم وكأنها أمها الحقيقية فعوضتها عن جميع النواقص التي سلبتها الحياة منها منذ رحيل أبيها حتى اليوم. فكرت سارة كثيراً ماذا لو اكتشفت كل تلك الحقائق قبل رحيل والدها، ومراراً قالت في نفسها ماذا لو تأخر في الرحيل قليلاً فلربما كنا تلافينا كل تلك الخسارات؟ لكنها كانت تدرك أن القدر لا يمكن أن يجري استفتاءً حول الأحداث التي تجري، رغم أنه يعطي الفرص تلو الفرص، لكن الإنسان صاحب النباهة والحظ هو الوحيد القادر على استثمارها وتوجيهها إلى المكان الصحيح. أدركت سارة أن وراء رحيل أبيها حكمة كبيرة أرادها الله سبحانه وتعالى، وهي تتلخص اليوم في كل ما يجري حولها من أحداث وعلاقات اجتماعية متماسكة بين الأسرة، كانت على ثقة بأن المحتال إسماعيل سينال جزاءه ولا يمكن أن ينعم بذلك المال الذي اغتصبه من والدها وتسبب بوفاته المبكرة. سُعدت سارة كثيراً وهي ترى نفسها تتقدم إلى الأمام وقناعاتها تصبح أكثر إيماناً ومنطقية من السابق، لقد ساعدتها تربية أبيها واحتضان عمها وبناته مع زوجته التي تدعوها أمها الثانية. كانت سارة محظوظة فعلاً بتلك العائلة ولطف

القدر الذي لم يشأ أن يكسرها بشكل نهائي، بل ترك المجال أمامها كي تكون أكثر قوة وتستفيد مما حصل كي تقوم من كبوتها وهي مصرة على الاستمرار بشكل أشد من أي وقت.

شعرت سارة بالعرفان بالجميل لجميع من حولها، حتى للظروف الصعبة التي صنعت منها إنسانة شديدة المراس، وقد ساهم إيمانها الكبير بقدرة الله وعدالته في اختيار الخير لعبيده الطيبين، في بث الهدوء في نفسها وطمأنتها أن كل شيء سيكون على ما يرام في المستقبل، هكذا كانت سارة تبسط الحياة وتجعلها أكثر سهولة وتقبلاً لأنها رأت منها كل شيء في سن مبكرة. لهذا لم تبطل اهتمامها بالمحافظة على عادات أبيها، فظلت تتمتع بالمشاهد التي طالما سحرت عقله ومخيلته، وتبتسم وهي تحدق بالغروب أو الشروق أو حين تعبر المساحات الواسعة في البرية، فهي المشاهدات التي كان يحتفي بها والدها ويحاول أن ينقلها إليها عندما كانا يمشيان سوياً عابرين الهضاب ومطلين على المنحدرات كأنهما يكتشفان الأراضي البكر التي لم يطأها أحد حتى اليوم. كانت الأمور تتفاعل في قلب سارة ومعارفها تكبر كل يوم مع القراءات والمشاهدات التي تتلقفها في الطبيعة والحياة الاجتماعية، وإذا ما ضاقت بها الدنيا، هرعت على الفور إلى ابنة عمها مريم التي كانت ملجأها الوحيد، فتبوح لها وتخبرها بما تشعر وتطلب أن تخرجا معاً لمراقبة القمر وهو يطل من بين الغمام كأنه يراقب

سكان الأرض أو لربما يحاول أن ينطق بشيء لا يفهمه البشر. تمكنت مريم من مجاراة سارة في تلك المشاعر نتيجة قراءاتها والنقاشات التي كانت تدور بينها وبين سارة، تلك اللحظات النادرة التي كانت تمر بها سارة، كانت بحاجة على رهافة كبيرة في الحس وحدقة واسعة في الرؤيا تستطيع التقاط كل التفاصيل، ومع مريم تمكنت سارة من إيجاد نفسها فألفت الحياة بسرعة وعادت إلى رشدها بعدما فتك بها رحيل والدها وهي في سن غضة لا تستطيع فيها مقارعة الصعاب.

الوقت يمضي، والفتيات يكبرن بسرعة. هكذا قال أبو سالم لزوجته وهما يتسامران بعد انفضاض المجلس وخلود الناس للنوم مبكراً استعداداً ليوم عمل طويل. لم يخف أبو سالم هواجس قلقه حول المستقبل وما يمكن أن يؤمنه لابنة أخيه سارة التي تعتبر أمانة في رقبته. وكانت أم سالم تطلب منه أن يدع الحياة تمضي في قدرها الطبيعي وألا يتدخل، فما يعتقده اليوم من أكبر الصعاب، ربما يكون في الغد من أسهلها، وما يمكن للإنسان فعله هو العمل والتحلي بالقيم والإيمان والصبر، وكل ما عدا ذلك مجرد تفاصيل لن تغير في المجرى العام سواء شعر المرء بالاستياء أم امتلك القناعة والرضا بقسمة رب العالمين ولطفه بعباده الطيبين. عندها كان أبو سالم يشعر بالاطمئنان ويغزوه شعور عارم بالسلام يكتسح كامل جسده ثم يستقر في قلبه فيضفي عليه الاستقرار وتصبح دقاته أكثر ثقة وانسجاماً مع ما يجري على أرض الواقع.

رويداً، ظهرت الحياة أكثر بساطة لدى الجميع، كانوا بحاجة لتلك الذروة من المعاناة حتى يكتشفوا طعماً آخر للنعمة التي يعيشونها، هكذا خرج الجميع بشكل متدرج من الفاجعة التي ألمت بهم، فشرع أبو سالم يأخذهم في زيارات إلى المدينة، ومرات يذهبون إلى البر فينصبون الخيم على شاطئ البحر أو عند سفح الجبل، وينبرون إلى اكتشاف الطبيعة حيث كانت سارة معلمة البنات نتيجة الخبرات التي كسبتها من والدها. عادت الحياة إلى دورتها الطبيعية والكل أصبح أكثر نضجاً وصلابة في المواجهات التي يمكن أن تحدث في أية لحظة. كانت الحياة تسير بثقة، يتبعها أولئك الخارجون من قلب المأساة وهم أشد ضراوة وقدرة على التحمل وتحقيق الأهداف.

-4-

مرت فترة طويلة من الزمن، وأصبحت سارة بعمر الوردة الناضجة، لكنها منذ أن تزوجت أمها عليا وغادرت القرية، لم تأت لزيارتها ولو مرة واحدة، حتى إن القلق انتابها من أن يكون مكروهاً ما قد حصل لأمها أو أن تكون حياتها غير هانئة مع هذا الرجل الغريب الذي لا يعرفون عنه الكثير. اضطرت سارة لغفران ما فعلته أمها عندما تركتها وذهبت كي تتزوج، وكانت تقول في نفسها إن تلك الخطوة كانت فائضة عن الحاجة خاصة أن عمها أبو سالم كان يقوم بمتطلبات العائلة المالية،

ولم يتركهما هي وأمها تحتاجان شيئاً، لهذا فإن زواج عليا من رجل غريب غير مقتدر وربما لا يعاملها بشكل جيد، يعتبر أمراً غير مفهوم بالنسبة إليها. ألفت سارة حياتها في بيت عمها، واستردت عافيتها بعد سنوات من العمل الدؤوب على مداواة الجراح التي تعرضت لها روحها منذ وفاة والدها وزواج أمها وفقدانها كل شيء تملكه الأسرة. كانت تواظب على عاداتها القديمة التي تعلمتها في بيت أهلها، فقد رأت في ذلك نوعاً من الوفاء الذي يجب أن تتحلى به احتراماً لذكرى أبيها. قرأت سارة معظم كتب التراث، وسحرتها قصص ألف ليلة وليلة، وحكايات العرب قبل الإسلام، كما قرأت عن التحولات التي حصلت منذ ولادة الدعوة الإسلامية والفتوحات التي قادها المسلمون في البلدان والأمصار. سبقت سارة عمرها من كثرة القراءة والاستماع إلى أحاديث المجالس التي يعقدها الرجال في بيت عمها أبي سالم بحضور العارفين والوجهاء، فتميزت بكل شيء، وكل ما رجته في تلك الفترة أن يتكلل صبرها بالحياة الهانئة التي تحميها من مفاجآت وأحداث قد تعيد تعكير الصفو الذي بدأت تشعر به.

كانت ليلة عادية تمر على القرية، وقد عجّ مجلس أبي سالم بالرجال كعادته، وكان من بين الضيوف رجل جاء من قرية مجاورة اسمه حميد، شارك أهل القرية أحاديثهم وظهر للجميع أنه رجل طيب الأخلاق حسن المعشر. وكما تقتضي العادات العربية، دُعي حميد

إلى العشاء على مائدة أبي سالم، وقضى الليلة عنده حتى الصباح ثم غادر إلى قريته على أمل تكرار الزيارة لأبي سالم الذي أكرمه وأحسن ضيافته.

في ذلك اليوم أرسل أبو سالم في طلب ابنة أخيه سارة إلى المجلس كي يتحدث معها قليلاً، فجاءت سارة على جناح السرعة من غرفتها الكائنة في فناء المنزل، وهي تتوجس خيراً من تلك الدعوة غير المألوفة بهذا النحو. شرع أبو سالم يتحدث عن سنة الحياة وضرورة أن يختطّ البنات والأبناء طريقهم الخاص في النهاية لأن الأهل لن يدوموا لهم طوال الدهر. ذكّرها أبو سالم بأبيها وحبه الكبير للعائلة وهاجسه الذي قتله عندما بقي مشغولاً بتأمين الحياة الرغيدة لأسرته، وأردف بأن الله قدر وما شاء فعل، وعلى الجميع القبول بحكمة الله والاختبارات التي يخضع العبد لها كي يكتشف مدى صبره وإيمانه. كلما أسهب أبو سالم في مقدمته تلك، كانت الهواجس تكبر في نفس سارة وهي تستمع بإصغاء شديد إلى عمها، وقد تمكنت بذكائها وقوة ملاحظتها أن تعرف ماذا يريد أن يقول بعد هذه المقدمة الطويلة. أخبرها عمها بأن أحد الرجال الذين حضروا المجلس ليلة البارحة واسمه حميد وقد قدم من إحدى القرى المجاورة، قد طلب يدها للزواج، وأنه ظهر رجلاً طيباً نال إعجاب الرجال الحاضرين في المجلس بأسلوب حديثه وقصصه وطريقة محاكمته للأمور.

لم تستطع سارة إلا أن توافق عمها على كل ما تحدث به، خاصة بعد أن رأت مدى اقتناعه بالرجل وتفضيله أن يكون زوجاً صالحا لها. تحدثت سارة عن تقديرها الكبير لعمها الذي عوضها عن غياب أبيها، وقالت إنها تعتبر نفسها إحدى بناته التي لن تعصي له رأي ولا تعارضه بقرار، لأنه يهدف إلى تحقيق مصلحتها من دون شك. وفي الوقت نفسه أملت سارة بأن تكون هذه الخطوة بداية حياة جديدة تعوضها عما فاتها من سنوات، وحلمت باللحظة التي ستنجب فيها أبناء وبنات يؤنسونها ويجعلونها تنظر إلى الدنيا بمنظار آخر. تمنت كثيراً أن تصل إلى تلك المرحلة التي تربي أبناءها مثلما فعل أباها، عندما كان يدربها على التعامل ويشجع لديها حس القراءة ويأخذها في رحلات إلى البرية يعلمها أنواع النباتات والصخور وأحوال الطقس.

عاد حميد بعد أيام إلى القرية، وتمت إجراء الخطبة وقراءة الفاتحة بسرعة، تبعتها تجهيزات العرس بعد أيام، لتغادر سارة قرية أهلها وعشيرتها باتجاه قرية أخرى لا تعلم عنها شيئاً. كانت متفائلة بالحياة التي تنتظرها هناك وترجو أن تكون تلك الخطوة خطوة جديدة في عمرها الذي تقاذفته الرياح والأمواج طيلة السنوات الماضية، وقد حان الوقت لأن يرسو في الميناء ويستقر أسوة بباقي البشر الذي يعيشون حياة طبيعية. وصلت سارة إلى بيت زوجها، وظهر حميد لطيفاً محباً لها، وهو ما اعتبرته علامات بشارة على ما ينتظرها في المستقبل. بذلت

سارة كل ما وسعها لإسعاد زوجها، وكان حميد مقتدر الحال سخياً مع زوجته لا يرفض لها طلب، حتى إنه ذكرها بأبيها وانشغاله الدائم بحال أسرته ومتطلباتها المتعددة. طيلة الأشهر الأولى كان حميد دائم الاستفسار إذا ما شعرت سارة بعلائم الحمل، وظهر أنه ينتظر بفارغ الصبر تلك اللحظة التي تخبره فيها بأن جنينهما الأول بدأ بالتحرك في أحشائها، وقد أخبرها أكثر من مرة بأنه يحب الأطفال كثيراً ويتمنى لو يملأ البيت بالصبيان والبنات الذين يحملون اسمه ويسعدونه في حياته ويساعدونه في أعماله ويكونون السند القوي في شيخوخته. وقد وافقته سارة فيما تمناه وابتهلت إلى الله تعالى أن تتمكن من تحقيق تلك الأمنية فتقر عينها بوجود أبنائها وبناتها وزوجها الطيب.

كان حميد يتغيب عن المنزل بدعوى السفر إلى المدينة أو القرى المجاورة من أجل متابعة أعماله، ولم تكن سارة تمانع في ذلك، فقد اعتادت هذا الأمر من أبيها الذي كان يزرع تلك المناطق جيئة وذهاباً ينقل البضاعة والحاجيات التي يبيعها في الأسواق المتعددة. كانت تكتفي بالدعاء له بالتوفيق وتنتظر الوقت الذي يعود فيه للمنزل فتجهز له جميع أسباب الراحة التي يريدها. الأحلام أخذت سارة إلى بعيد جداً، حيث شرعت بتجهيز غرفة للأطفال في المنزل وكل فترة كانت توصي حميد كي يأتيها ببعض الأغراض الخاصة بذلك. عاشت سارة على الأحلام الجميلة وأصبحت الحياة وردية أمامها، وكان حميد عاجزاً

أمام رقيّ سارة وثقافتها وهدوئها في التعامل، أحس أنه بزواجه حصل على كنز نادر لا يمكن العثور عليه بسهولة في هذا الزمن. لهذا قرر أن يفتش جميع أوراقه أمامها ويصارحها بكل تفاصيل حياته بعدما نالت مكانة كبيرة في قلبه.

في ذلك اليوم، أحست سارة بالكلام يزدحم في عيون حميد العائد صباحاً من إحدى سفرياته، كان يظهر متردداً حائراً كأن على لسانه الكثير مما يود أن يخبر به سارة لكنه يخشى التبعات. لكن بفراستها وذكائها اكتشفت كل ذلك، فطلبت من حميد أن يبدأ حديثه مباشرة دون حسابات للعواقب. عندها صارح حميد سارة بأنه متزوج من ابنة عمه فاطمة التي تملك البيت والمزرعة والكثير من الأملاك الأخرى التي ورثتها عن والدها، لكنها لا تنجب الأطفال، وقد وافقت على زواجه من سارة تلبية رغبته في أن يرزق بطفل يؤنس حياته. شرح حميد لسارة كم يحبها وكم هو متعلق بها، لكنه أعرب عن عدم قدرته على رفض طلب لزوجته فاطمة التي يمكن أن تحرمه من كل تلك الأملاك إذا ما غضبت عليه. كانت سارة تكتفي بالصمت بينما يحاول حميد أن يبرر إخفاءه هذه الحقيقة خوفاً من رفضها الزواج منه. أدركت سارة أن ما بني على الغش لا يمكن أن تكون نهايته سعيدة، لكن حكمتها جعلتها تستمر في الصمت فلم تغضب ولم تقم بتوبيخ زوجها على كذبه عليها طول تلك الفترة، كانت سارة غريبة في قرية بعيدة عن

أهلها وبيت عمها أبي سالم الذي يمكن أن تشكو لها حالها إن جارت عليها الأيام، لكنها اليوم ظهرت مضطرة للقبول بالأمر الواقع وقد عزّت نفسها بتأسيس أسرة وإنجاب أطفال يكرمونها ويصونون حياتها ويقفون بجانبها في السراء والضراء. إيمان سارة بحكمة الله تعالى ورحمته بعباده الطيبين، جعلتها تتفوق على إحساسها بالظلم من زوجها حميد الذي أخفى تلك الحقيقة عنها، فلم تتفوه بحرف واحد، كانت سلمت أمرها إلى أمواج الحياة تأخذها وتأتي بها كيفما شاءت، فلا خيار لمقاومة ذلك إلا بالصبر والإيمان. فكرت سارة طويلاً لو قررت ترك زوجها أين تذهب، هل تعود إلى بيت عمها أبي سالم وهو الذي استقبلها ورباها ووهبها كل ما تحتاجه فكان بمنزلة أبيها، لكنها لم تشأ أن تعود إلى عمها المثقل بهموم بناته وتأمين مستقبلهن ولا ينقصه أن يحمل همها هي الأخرى.

استمرت سارة بالصمت، بينما كان حميد يكمل كلامه ويحاول تبرير فعلته، لكنه لم يدرك أن سارة لم تعد تسمع كل ما يهرف به أمامها بعد أن استسلمت لأفكارها وحساباتها واقتنعت أن لا فائدة من أي ردة فعل سوى الصمت كأنها لم تسمع شيئاً. لم يقطع تلك الحالة سوى صوت امرأة تصرخ من خارج المنزل كي يخرج لها حميد، كان الصوت بمثابة منبه قوي أنقذ حميد من الإحراج الكبير الذي شعر به وهو يقف أعزل بمواجهة سارة، فهرع خارج المنزل ليلبي نداء زوجته فاطمة التي

جاءت كي تأخذه من عند زوجته الجديدة بعد أن شعرت بالغيرة من تأخره عندها. الشعور بالنقص بسبب عدم الإنجاب، دفع فاطمة دائماً لأن تكون عدائية مع النساء الأخريات وفي مقدمتهن سارة، فبعد أن كانت هي من شجعت حميد على الزواج من امرأة ثانية بهدف الإنجاب على أن يبادر إلى طلاقها بعد أن تلد له طفلاً فيأخذ الطفل ويعيدها إلى أهلها في القرية البعيدة. كانت فاطمة تأمل في تربية الطفل كابنها، لكنها لم تكن تتخيل أنها ستكون عاجزة عن تحمل غياب زوجها عند امرأة أخرى. جاءت فاطمة برجليها إلى بيت سارة كي تسترد حميد وتذكره بأنها صاحبة الأملاك والأطيان التي ينعم بها، وأنه إذا ما فكر بالخروج عن طوعها وشورها، فهي قادرة على إعادته فقيراً مثلما كان به الحال قبل أن يتزوجها، ورغم أنها لم تنطق بكل تلك الحقائق إلا أن حميد يعرفها جيداً ويدرك أن هذا ما سيحصل إذا ما تفاقمت الغيرة في قلب فاطمة ووصلت إلى مرحلة لا تحتمل فيها وجود سارة.

خرج حميد بسرعة من المنزل تلبية لنداء فاطمة، وذهب معها إلى البيت وهو يعد نفسه لجلسة تقريظ وغضب كبيرة. كانت فاطمة واضحة مع حميد عندما ذكرته بحرمانه من كل شيء إذا ما تورط بحب سارة، وأعادت عليه اتفاقهما على أن وجود سارة في حياته يتعلق بهدف الإنجاب فقط، وما إن تنجز ما عليها وتأتيه بطفل، سيكون مصيرها الرحيل والعودة إلى قريتها بعد أن يقوم بطلاقها كما هو متفق. كان

بود حميد أن يعلن حبه لسارة، لكن الكارثة التي ستحصل بعد ذلك تعني إنهاء حياته ومستقبله وعودته للحضيض.

انفردت سارة بنفسها بعد خروج حميد تلبية لدعوة زوجته فاطمة. فكرت في ذلك القدر القاسي الذي جعلها تخسر الأب والأم والآن الزوج. أيقنت في قرارة نفسها أنها ستبقى مهددة بالطلاق بسبب فاطمة المتحكمة بحميد وثروته ولقمة عيشه. عادت بها الذكريات إلى أحد المشاوير الصباحية التي خرجتها مع أبيها إلى البرية، كان الوقت شتاء في ذلك الوقت، وقد أشار إليها والدها أن تتأمل النباتات الشوكية وهي تحمل قطرات من الندى على أوراقها الصغيرة. قال لها أبو راشد إن هذه القطرات القليلة والصغيرة، ستكون خزاناً تحتفظ به النباتات من أجل العيش في الصيف والحرارة العالية. أدركت في نفسها أنها تشبه تلك النباتات الوحيدة في البرية، لا مجال أمامها سوى العيش على قطرات الندى التي تخزنها من طفولتها مع أبيها، وكل ما عليها اليوم القيام به هو اختزان ذلك الرصيد كي يساعدها على الاستمرار والصبر. كان الأمل بإنجاب طفل يعوضها عن كل شيء، لكن لم يغب عن بالها محاولة فاطمة سرقته منها لاحقاً، عندها أيقنت أنه ستنفجر بكل قوتها كي تدافع عن وليدها الذي يعتبر خطاً أحمر بالنسبة إليها.

لحسن الحظ، جلبت سارة معها عدة كتب من مكتبها الثرية في

منزل عمها أبي سالم، فكانت تهرب للقراءة أو كتابة الشعر ومراجعة يوميات الكتاب والقصص الشهيرة في العالم. وكان يحزنها أن تتحول إلى امرأة مهمتها انتظار عودة حميد كل يومين ليقضي معها بضع ساعات قبل أن تناديه فاطمة بأن يسرع بالخروج. مرات كثيرة شعرت بأنها محطة مهجورة لقطار يأتيها بلا مسافرين ولا أنباء سعيدة من المناطق المجاورة. وكان هذا الشعور يتفاقم كلما طالت المدة التي يغيبها حميد، فتعلم في قرارة نفسها أن فاطمة لم تسمح له بالقدوم. حملت سارة كل تلك المعاناة وحيدةً مثل نبتة الشوك البرية التي تحتضن قطرات الندى لتحميها من قيظ الصيف.

مع الوقت، تفاقمت مضايقات فاطمة لسارة، فلم تسمح لزوجها حميد بالمبيت عندها، وعندما كان يمر خلال النهار، كانت تشترط عليه ألا تتجاوز زيارته ساعة واحدة، وفي بعض الحالات التي حاول حميد أن يضحك على فاطمة ويقول لها إنه ذاهب إلى أحد أصدقائه أو من أجل قضاء حاجة معينة في السوق، ثم يذهب إلى زيارة سارة ، كانت فاطمة تتوقع ذلك فتقطع خلوتهما بصوتها المرتفع وهي تنادي عليه أن يخرج بسرعة لمقابلتها. تحولت فاطمة إلى كابوس لكنها لم تؤثر على هدوء سارة واستيعابها لوضعها المتعلق بعدم الإنجاب. كانت سارة أكبر من أن تستفز بشكل سريع وتقوم بردّات فعل لا تناسب قدرها ورقيها، الأمر الذي زاد من نسبة الضغينة في قلب فاطمة فهي لا تسمح لحميد

إلا بكميات محدودة من الطعام والحاجيات بذريعة أنها تعيش وحيدة ولا تحتاج إلا لجزء يسير.

مرت الأيام متثاقلة على سارة، وتمنت لو تحسم أمر زواجها من حميد بإنجاب طفل يغير مكانتها في قلبه أو يجعلها تهرب به إلى قريتها البعيدة كي تربيه بعيداً عن منغصات فاطمة التي لاشك ستكبر في حال أنجبت لحميد ما يسعد قلبه ويقر عينه. بقي حميد يزور سارة ويغادر بسرعة كأنه ملاحق، فلا يكاد يمضي وقتاً قصيراً عندها إلا ويبدأ بالقلق ويعتذر من سارة فيرحل وهو يتلفت يميناً ويساراً خوفاً من أن تداهمه فاطمة وتبدأ بتوبيخه كعادتها.

-5-

لم يكن حظ عليا في زواجها أفضل من ابنتها سارة، فقد داهمتها حالات الندم الشديد لأنها تركت ابنتها وأهلها وجاءت إلى هذه القرية الغريبة فتزوجت من أبي سليمان كبير السن، ولم تكن مهمتها سوى العمل في البيت ورعاية زوجها كأنها موظفة تعيش بلا عواطف ولا أبناء يشغلونها. لم تصدق عليا ما فعلته في نفسها وابنتها، وتمنت لو أنها تستطيع الذهاب إلى قريتها للاطمئنان على ابنتها وأهلها، لكن أبا سليمان لم يكن يوافق على ذهابها خوفاً من أن تهجره فلا ترجع إليه مرة ثانية. لطالما

قارنت عليا بين زوجها الراحل أبي راشد وزوجها الجديد أبي سليمان، وكانت تجد أن أوجه التشابه بين الاثنين معدومة، وأن أبا راشد لن يكرره الزمان بالسهولة التي تتوقعها، ذلك الرجل الشهم الكريم المشغول بمصالح عائلته قبل كل شيء، كان كنزاً نادراً فقدته من بين أيديها وصار في ذهنها مجرد أضغاث أحلام. تساءلت عليا مع نفسها إن كان أبو سالم قد قام بتزويج سارة من أحد شبان القرية، وهل رزقها الله بأبناء لم تسمع بولادتهم وهي بعيدة جداً عنهم. كثيراً ما اشتاقت عليا لأحفادها المفترضين وتمنت لو يأتيها مسافر غريب أو طائر قادم من مسافات بعيدة، برسالة أو خبر حول أحوال ابنتها سارة وأهلها في تلك القرية التي أمضت طفولتها وشبابها وخسرت فيها أعز من تملك.

شعرت عليا أنها تُعاقب بزواجها من أبي سليمان، ولهذا بدأت عصبيتها بالظهور وراح توترها يتصاعد حتى في معاملتها مع زوجها الذي لم يستطع أن يبرر منعها من زيارة أهلها. كانت تعود إلى استرجاع ذكرياتها مع أبي راشد، فتجلس كي تحدق بالأفق البعيد كي تراقب غروب الشمس الذي طالما كان يسحر خيال زوجها السابق. وكل يوم كانت تراقب النباتات والطيور وتحولات الطقس، وتكرر في نفسها ما كان يقوله أبو راشد عندما يقول بصوت مسموع: الله، عندما يشاهد الشمس وهي تتحول إلى كرة نحاسية محاطة بهالة من الأحمر القاني، وهي تختفي رويداً خلف قمم الجبال الصخرية

التي تخفي وراءها مساحات من المجهول.

كثيراً ما استيقظت عليا مرعوبة من كابوس ألمّ بها وهي تغط بنوم عميق، كانت تحلم بسارة وهي تحدق إليها معاتبة غاضبة، ثم تدير ظهرها وتمضي دون أن تحدثها شيئاً، في ذلك الحلم، تحاول عليا أن تنادي على ابنتها لكن صوتها لا يخرج وتخونها حنجرتها المقيدة لسبب مجهول. كان ذلك بالنسبة لعليا دليلاً على ما ارتكبته من آثام بحق سارة عندما تركتها وجاءت بلا مبرر منطقي إلى هذه القرية النائية والبعيدة عمن تحب. حاولت عليا كثيراً إقناع زوجها بالسماح لها بزيارة أهلها في القرية، لكنه كان يرفض متذرعاً بوضعه الصحي، وعندما تلح عليه يعدها بأن يذهبا سوياً خلال الشهر القادم بعد أن يتحسن الجو ويصبح مناسباً للسفر، لكن وعود أبي سليمان تذهب دائماً أدراج الرياح، حتى أحجمت عليا عن الطلب منه، وفكرت مراراً بترك المنزل والهروب عائدة إلى قريتها البعيدة، لكنها خشيت ألا تجد من يستقبلها وألا تجد ابنتها سارة التي ربما تزوجت في مكان بعيد هي الأخرى. آلمها كثيراً قسوة أبي سليمان في التعامل معها واعتبارها مجرد موظفة لخدمته كأنها مقطوعة من شجرة. كانت الكراهية تنبت ببطء في قلبها تجاه أبي سليمان، وباتت ظاهرة في سلوكها وردات فعلها تجاهه. أرادت قلب حياته إلى جحيم جزاءً على أفعاله معها، وهذا ما حصل بالفعل.

-6-

الوقت قارب المساء، ولم يأت حميد في موعده لزيارة سارة، لم يكن الانتظار سوى كأس مرّ تتجرعه كل يوم دون أن يحق لها الاحتجاج، إلى درجة أنها نامت على الارض وهي تنتظر سماع أقدام تتقدم باتجاه المنزل. شعرت وأنها ستنسى الكلام إذا ما استمرت في هذه الوحدة القاتلة، كانت تتذكر ابنة عمها مريم وتنهال عيناها بالدموع السخية وهي تتمنى لو كانت قريبة منها لتحمل معها بعض العبء الذي يرزح على صدرها كأنها جبل مستقر لا يتزحزح. في ذلك اليوم، جاء حميد متأخراً ولم تسمع سارة خطواته وهو يتقدم نحو البوابة، بل استيقظت على صوته وهو يحاول إيقاظها بهدوء حتى لا تصاب بالخوف. حاولت سارة مداراة آثار الدموع على خديها الطريين، فنهضت وتظاهرت بأن سهوة النوم داهمتها فجأة فاستسلمت لها. لكن حميد كان يدرك مدى المعاناة التي تعيشها زوجته، فيحمل نفسه ذنب المجيء بها إلى هذه القرية التي تعاني فيها الأمرّين من فاطمة ومن عزلتها عن العالم بعدما كانت حياتها تضج بالحياة.

تحدث حميد برقة مع سارة، بعد أن مسح على شعرها وأخبرها بشوقه الكبير للقياها، لكن سارة كانت قد نضجت بما يكفي لتكتسب مناعة ضد الكلمات المجانية التي لا تجد مصيرها في الواقع. تابع حميد

كلامه عن حبه الشديد لها، وأنه مضطر لمراعاة ابنة عمه فاطمة التي عشقها من أن كانا صغيرين، وقد وهبته مالها وأملاكها التي يمكن أن تستردها إذا لم ينفذ كلامها في كل صغيرة وكبيرة. كان من الواضح أن هناك كلاماً يمهد له حميد بجهد كبير كي يظهر وكأنه نتيجة طبيعية لا تخفف من رجولته وشهامته المنقادة إلى زوجته فاطمة والخاضعة لأوامرها. طلبت منه سارة بكل حزم وجرأة أن يتحدث من دون لف أو دوران عما يريد قوله وأنه لا داعي للمقدمات التي لا جدوى منها. تلكأ حميد وهو يرى ملامح القوة واللؤم تظهر على وجه سارة للمرة الأولى، بعد أن اعتاد على قبولها بكل شيء دون أي احتجاج.

قال حميد لسارة إنه مضطر للتخلي عنها رغم حبه الشديد الذي يكنه لها، فزوجته فاطمة طلبت منه أن يطلقها لأنها لم تعد تحتمل وجود امرأة أخرى في حياته، وهو مضطر لتنفيذ هذا الأمر بسبب أملاكها التي ستسحبها منه إذا خالف رأيها. كان حميد يشعر بالخزي وهو يظهر ذليلاً صاغراً أمام سارة الصامدة والقوية التي لم تستطع فاطمة جرها إلى أي من النزالات التافهة ولم تستفز أعصابها مرة بسلوكها الكيدي الغيور. عندما أنهى حميد كلامه، كانت نظرات التشفي التي قذفته بها تكفي لأن يبدد عينيه ويذهب بهما بعيداً عن مواجهة عينيها البراقتين بالعزيمة والاستخفاف بهذا الرجل الضعيف تجاه زوجته وأموالها. أخبرته سارة بأنه قد تأخر كثيراً في اتخاذ هذا القرار، أو بالأحرى إن

فاطمة قد تأخرت في إبلاغه قرارها، فالجنين في أحشائها بدأ اليوم بالحركة وقد اقترب عمره من ثلاثة أشهر.

كأن صاعقة نزلت على رأس حميد وهو يستمع لكلام سارة عن وجود جنين يتحرك في أحشائها، فما كان منه إلا أن قفز من مكانه سعيداً ثم راح يقبل جبينها ويعبر لها عن حبه الكبير ويرجوها ألا ترهق أعصابها بسبب تصرفات فاطمة الغيورة التي أصاب قلبها الحقد الحسد. أقسم حميد لسارة أنه سيعالج الموضوع بطريقته الخاصة ولن يتخلى عنها وعن ابنه الذي تحمله في بطنها. فجأة تحول حميد إلى طفل صغير، لكن هذا لم يشفع له عند سارة التي لاحقته بالقول عما سيفعله إذا رفضت فاطمة إبقاءها وأصرت على الخلاص منها ومن الطفل معاً. لكن حميد طمأنها بأنه سيتولى حل الموضوع، وأعاد عليها ضرورة أن تعتني بنفسها وغذائها من أجل سلامة الطفل، ووعدها بالعودة مبكراً في صباح اليوم التالي. خرج حميد من باب المنزل وهو يشعر أن الدنيا لا تسعه من شدة الفرح، فراح مهرولاً إلى زوجته فاطمة وأخبرها بأن سارة حامل في الشهر الثالث وأنها كانت تنتظر لتتأكد من الحمل بل أن تخبره بذلك.

وقع الخبر كالصاعقة على رأس فاطمة، فهي لم تكن متقبلة لسارة من دون أن تحمل، فكيف هو الحال الآن وقد تمكنت من تحقيق حلم

زوجها بأن يصبح أباً. لم يؤثر الخبر على قرار فاطمة فأصرت على قيام زوجها بطلاقها حتى لو كانت حاملاً، لكن حميد أعد الإجابة مسبقاً، وأخبرها بأن طلاق المرأة أثناء الحمل يعتبر من الكبائر المرفوضة في الدين وأن ذلك مخالف للشريعة والأخلاق وكل القيم الإنسانية. إذ ذاك اضطرت فاطمة للقبول شريطة أن يقوم بطلاقها فور ولادتها، فهي لن تحتمل وجود سارة على ذمة رجلها، حتى لو أنجبت قبيلة من الأطفال. كان حميد يريد أن تمر تلك اللحظة بأي شكل فيحصل على موافقة فاطمة ريثما تلد سارة وعندها لابد سيجد حلاً يجعله يحتفظ بالطفل إذا لم يتمكن من الإبقاء على سارة في بيته.

انقلبت حياة حميد جذرياً، فكثرت زياراته إلى سارة، وزاد دلاله لها، وكثيراً ما كان يتهرب من فاطمة ويأتي بشكل سري إلى سارة محملاً بالطعام والأغذية من أجل الاطمئنان إلى وضع الجنين. ورغم أن فاطمة كانت تحس بالزيارات التي يقوم بها إلى سارة من وراء ظهرها، إلا أنها كظمت غيظها قائلة في نفسها إنها هي من ستمتلك الطفل وهي من ستربيه منذ لحظة ولادته، أما سارة فسيكون مصيرها العودة إلى قريتها البعيدة. قلب الجنين القادم جميع الموازين في العائلة المضطربة أساساً، الوحيدة كانت سارة من شعر بالاطمئنان والرضا على ما أنعمه الله عليها، فظهرت أكثر تفاؤلاً بالمستقبل الذي ستجد فيه من يؤازرها ويقف إلى جانبها سواء ولدت صبياً أم بنتاً.

استعادت سارة ذكرى أبيها، وراحت تحدث طفلها المنتظر عن جده ومآثره العظيمة في الأخلاق والشهامة والتربية. كانت تمسّد على بطنها بكثير من الحنان، ثم تخاطب الجنين وكأنه إنسان كامل يقف إلى جوارها ويفهم ما تقول. بدأت تعد الطعام كل يوم بعد أن كانت تكتفي بالنذر اليسير من الكل، وراحت تحدد لحميد ما هي الأغراض التي يجب جلبها من أجل العناية بصحة الجنين، حتى إنها بدأت تجهز غرفته الخاصة وتطلب من زوجها أن يشتري الثياب والألعاب المناسبة لرضيعها القادم. أحست سارة أن الأفق الذي كانت تحدق فيه أثناء غروب الشمس، قد انفرج عن نور كبير بات يغمرها ويزين حياتها بالفرح، رغم أنها لم تكن مطمئنة للمستقبل الذي ينتظرها بعد الولادة، لكنها اكتفت بأن تصبح أماً من كل هذا العالم الذي قسا عليها كثيراً منذ اللحظة التي مات فيها أبوها وتركها وحيدة. كانت تتذكر كلمات أبيها عن انشغاله الدائم بتأمين مستقبلها مع أمها خشية من المفاجآت التي يمكن أن تحدث، ويستعصي عليها تفسير ضياع مستقبلها بسبب حرص أبيها على هذا المستقبل. فلو أنه لم يدخل ذلك المشروع ولم يسلم المال لذلك النصاب إسماعيل، لما آلت بها الأمور إلى هذه القرية الغريبة كي تتحكم بها امرأة مكيودة مثل فاطمة.

كانت شهور الحمل بطيئة على الجميع، فحميد يريد أن يكحل عينيه بطفله المنتظر، ولهذا كان يعد الأيام بالساعات. أما سارة فكانت

تشعر بأن انعطافة كبيرة تنتظرها بعد ولادة ابنها الأول في ظل الخطط الجهنمية التي تحيكها فاطمة. أما فاطمة فكانت تريد أن تنهي تلك القصة بأي طريقة ممكنة، فمرات تعزي نفسها بقرب أن تصبح أماً أسوةً ببقية النساء، ومرات أخرى تقول في نفسها إن هذا الطفل قد يكون وبالاً عليها وعلى زوجها لأنه سيجعله أكثر التصاقاً بسارة وأشد محبة لها. أيام متثاقلة مرت، وكانت سارة تلتقط أنفاسها وتعزي النفس بالفرج القريب، ولطالما ما فكرت بأبيها وأمها، ترى ماذا سيقول أبو راشد لو كان حياً الآن ووصله نبأ حمل ابنته الوحيدة؟ وعندما كانت تذكر أمها، كانت تتساءل كيف تمكنت من التخلي عنها بهذه السهولة، الأمر الذي كان يقوي من علاقتها بجنينها فتشعر أنها قد تفارق الحياة ولا تفارقه.

واظب حميد على زيارة سارة كل يوم لساعات طويلة، فلا يخرج من عندها إلا تلبية لنداءات فاطمة التي تلحق به مطلقة صراخها العالي كي يخرج لأنها تنتظره عند الباب. كان حميد يقوم بحركات مضحكة لسارة وهو يستمع إلى صوت فاطمة تطارده في كل مكان خشية من تأثير سارة عليه. وعندما يعودان للمنزل تطلب منه أن يحكي لها بالتفصيل جميع ما دار بينه وبين سارة، وكيف يبدو شكلها بعد الحمل، وهل تأكل بكميات أكبر من ذي قبل، وهل تشعر بتحركات الجنين فعلاً. فما كان حميد يسترسل بالحديث عن طفله المنتظر، وعن حركاته التي تؤكد أنه مولود ذكر سيحمل اسم أبيه ويخلد ذكره مثل بقية الآباء

الرجال الذين يطمحون لهذه اللحظة التاريخية. كان حميد ينتقم من فاطمة بشكل غير مباشر وهو يخبرها بهذه التفاصيل ثم يستسلم برضا لعلامات الانزعاج والغيرة التي تظهر على وجهها، ثم يستدرك بالقول إن وجود الطفل يعني الخير لنا جميعاً فأنت ستكونين أمه أيضاً وسيكون لك دور في تربيته والعناية به. لكن سارة لم يكن يعجبها كل ذلك، وكلما حاولت أن تهدىء حالة القلق التي تنتابها كان الخوف يجتاحها بشكل أقوى، الأمر الذي جعلها لا تعرف ليلها من نهارها وهي تفكر في طريقة تنقذها من هذه الورطة التي تقترب مع ولادة الطفل.

لم يكن حميد يتوقع أن تخرج فاطمة بتلك الفكرة الجهنمية، ففي أحد المساءات وبعد أن عاد حميد من عند زوجته سارة، أخبرته فاطمة بأنها قد اتخذت قراراً نهائياً بشأن سارة وابنها المنتظر، فسارع حميد لسؤالها عن طبيعة هذا القرار وماهيته، فأخبرته أنه من الضروري وبمجرد ولادة سارة للطفل، أن يأخذه منها ويقوم بطلاقها وإيصالها إلى قريتها بشكل نهائي. فغر حميد فمه وهو يستقبل هذه الفكرة التي لا تخطر على بال الشياطين، فكيف يمكن أن يحرم الأم من ابنها بهذا الشكل، ولماذا لا تقبل فاطمة أن تكون أماً ثانية إلى جانب سارة فتعيش الاثنتان في وئام واتفاق كأنهما أسرة واحدة؟ كان حميد مضطراً للقبول بكل ما تريده فاطمة، فالأملاك والأطيان التي ستسلب منه تساوي سارة وابنها إذا ما اضطرته الظروف إلى الاختيار بشكل نهائي بين الاثنتين. كانت

فاطمة تعرف نقطة ضعف حميد وتعلقه بالمال والجاه، لهذا عرفت ردة فعله سلفاً، ولم تستغرب عندما أخبرها بموافقته على طلاق سارة والاحتفاظ بالطفل نزولاً عند رغبتها.

بإحساسها الحاد وذكائها الكبير، استطاعت سارة أن تتوقع من فاطمة كل شيء، لكنها كانت في مرحلة تجاوزت فيها كل المخاوف المتوقعة، وقد حسمت أمرها بشكل قاطع أثناء مسامراتها المعتادة واليومية مع جنينها الذي تحاكيه وتتحدث إليه كأنه رجل كامل يستمع إليها باهتمام، إنها لن تتخلى عن ابنها حتى لو خسرت العالم كله، وإذا تطلب الأمر ستنقلب إلى لبوة شرسة تفتك بكل من يفكر بحرمانها من ابنها أو النيل من سعادتها به، كانت سارة تشعر أنها وصلت إلى حد الثمالة من اجتراع كؤوس المرارات بشكل متعاقب ومتتال، لهذا سكنها نوع من الاطمئنان النادر وكانت تقول لنفسها إنها لن تخسر شيئاً فوق ما فقدته في السابق. كان الولد المنتظر هو الكنز الذي سيعوضها خسارات الماضي منذ اللحظة التي سيطلق فيها صرخته الأولى.

-7-

لم يتغير شيء في القرية، منذ أن غادرتها سارة منذ أكثر من عام، وكان اسمها يحضر دائماً بين بنات عمها اللواتي افتقدنها وانشغل

بالهن عليها بعدما طال غيابها من دون أن تزورهم مرة واحدة، لم يكن أحد يعلم بما تكابده هناك عند زوجها الغريب الذي كان يمانع في زيارة أهلها حرصاً منه على إتمام خطته المرسومة مع زوجته فاطمة بكثير من الدهاء وانعدام النزاهة. لم يكن يخطر على بال أبي سالم أن سارة تعيش معاناة قل نظيرها، وكان من الواضح أنه وقع ضحية الغش والخداع مثلما حصل مع أخيه أبي راشد عندما وثق بإسماعيل المحتال الذي سرق ماله وتسبب بموته وتشريد عائلته. وكثيراً ما كانت سارة تجري هذه المقارنة بين إسماعيل وحميد، من جهة، وأبيها وأبي سالم من جهة ثانية. كانت أسرة سارة نبيلة تعتبر أن الرجال يمسكون من ألسنتهم، لهذا سهل الإيقاع بهم أكثر من مرة راحوا فيها ضحية الغش والخداع.

اقترحت مريم على أبيها، أن يبادروا بالسؤال عن سارة وأحوالها أو القيام بزيارتها بعدما طال الزمن ولم يسمعوا عنها شيئاً، فوعدها أنه خلال سفره القريب من تلك القرية في المرحلة القادمة سيقوم باصطحابهم من أجل زيارتها والاطمئنان عليها. لاسيما أن أبا سالم قد انتابته هواجس القلق على ابنة أخيه وخشي أن تكون وقعت في مكروه ما ولم تتمكن من اللجوء إليهم وإخبارهم نظراً للمسافات الكبيرة التي تفصل بينهم. لكن لم يصارح ابنته مريم بتلك المخاوف كي لا يزيد من قلقها وهي الشقيقة المقربة إلى سارة التي تعتبرها توأم روحها وفكرها.

خلال تلك الفترة، واظبت مريم على القيام بما كانت تحبه سارة، فكانت تزور المساحات الواسعة في البرية، وتمر بالقرب من بيت عمها القديم، تحاكي الأطلال وتقرأ الأشعار وتحدث أماكن الطفولة التي قضتها مع سارة، وفي الطريق تنظر إلى النباتات الطرية وتراقب زهرة الشوك وهي تكبر وتشير إلى أشجار الغاف المترامية على المنحدرات القريبة، بأنها مازالت في البال ولن تغيب عنه أبداً. مضى وقت طويل حتى تقبلت البنات فكرة غياب سارة عن مائدة الطعام وعن جلسات المسامرة التي كن يعقدنها مع أم سالم وصديقات الحي اللواتي حرصن دائماً على زيارتهن. حتى إن إحدى بنات أبي سالم الصغيرات سألت والدها لماذا لم يشترط على حميد أن يسكن في القرية عوضاً عن أخذ سارة معه؟ وكان أبو سالم يبتسم ثم يقبل ابنته الصغيرة، ويقول في قلبه إنها كانت فكرة جيدة بالفعل.

كثيراً ما كانت ذكرى أبي راشد تهجم بشكل مفاجئ على ذاكرة أخيه، فيهرع إلى البرية باتجاه المزرعة التي طالما أحبها واعتنى بها، ثم يطوف في المناطق التي طالما مشيا فيها معاً، كان غياب أبي راشد صعباً على أبي سالم رغم السنوات التي مضت، وقد أقسم أكثر من مرة أنه إذا صادف المحتال إسماعيل في أي مكان من العالم فسيبادر إلى النيل منه وربطه بحبل يجره حصان ليصبح ممسحة لطرقات القرية وعبرة لمن يعتبر. كلما حاول أبو سالم إخماد حالة الغضب مما جرى لأخيه، عاد لينفجر

مثل بركان بين الفينة والأخرى، لهذا كان جل ما تخشاه أم سالم هو ألا تكون سارة سعيدة في حياتها أو أن يكون حميد رجلاً يسيء معاملتها، فلا شك أن أبا سالم سيفرغ كل غضبه فيه وسيقتله مهما كان الثمن.

كانت الأيام تمر والقصص القديمة لا تتزحزح من مكانها، أصبحت قصة أبي راشد وأسرته جزءاً من تاريخ القرية ككل، وكثيراً ما كان الرجال يستعيدون ذكرى أبي راشد في مجلسهم المنعقد يومياً في بيت أبي سالم، فيقول أحدهم رحمك الله يا أبا راشد فقد قلت يوماً إذا قلّ الرجال في قوم، فعلى القوم السلام. وإن الرجال يعرفون أثناء النوائب وليس في حضور الموائد والأفراح. خلال تلك الفترة لم يقم أبو سالم بافتتاح تجارة أو أعمال جديدة، كان يقول لأم سالم إنه يشعر بالشيخوخة تقتحمه من كل جانب، خاصة بعد رحيل أخيه الذي ترك في قلبه جرحاً لا يندمل، حتى إن أم سالم حذرته من حالة الزهد التي يعيش فيها ورجته أن ينتبه لصحته ويعيش تفاصيل الحياة لأن الحي أبقى من الميت. لكن أبا سالم كان قد توصل إلى مفهوم مختلف للحياة بعد أن مرت عليه تلك الأحداث الجسام التي تهدّ الجبال كما كان يقول رجال القرية.

في تلك الفترة شهدت القرية انفتاحاً اقتصادياً، حتى إن بعض التجار عمدوا إلى تنفيذ الفكرة التي أدّت إلى مقتل أبي راشد وهي شركات التجارة، فاشتروا المراكب وشرعوا بتحميل البضاعة وافتتحوا

الاستثمارات الجديدة، وكان الجميع يترحمون على أبي راشد الذي كان كبش فداء في تنفيذ هذه الأفكار. أما في جلسات النساء اللواتي يجتمعن عند أم سالم، فلم يكن يمر يوم إلا وتسأل إحداهن عن سارة وأخبارها وهل رزقها الله بولد يؤنس وحدتها في تلك القرية الغريبة. كان ذلك الأثر الطيب الذي تركته أسرة أبي راشد عصياً على النسيان مع تقادم الوقت، مع أن عليا أم سارة وزوجة أبي راشد، لم تكن تنجو من الانتقادات بسبب زواجها المتسرع وتركها لابنتها وهي في ريعان الصبا، وكانت الآراء تتفق على أن الابنة أهم من الزوج في هذه الحالات التي تحتاج فيها البنت لأمها كي تفتح عيونها بشكل صحيح على الحياة. كانت أم سالم تنال حصة الأسد من الإعجاب والاحترام بين نساء القرية، فقد تمكنت من القيام بدورها على أكمل وجه تجاه عليا وسارة، ولم تكن تبخل بالعطف والحنان والعناية على سارة التي أصبحت وحيدة بعد زواج أمها ورحيلها عن القرية. وللمرة الأولى تتحول قصة حصلت حديثاً في القرية إلى جزء من التراث الذي يتناقله أبناؤها عادة في مجالسهم، كأن الله عوض أبا راشد عن خسارته في دنياه، بتلك الذكرى العطرة والمآثر التي يحكيها الناس عنه.

-8-

عندما اقترب موعد ولادة سارة، أصبحت ضرتها فاطمة أكثر توتراً،

ولكم كانت تعجبها فكرة موت سارة أثناء الولادة وامتلاكها للطفل كأمّ شرعية، فكانت تستسلم للأفكار والخيالات، وتخطط كيف من الممكن أن تنقل الطفل إلى اسمها بحيث لا يبقى لسارة أي أثر أو ذكرى عندما يكبر الولد. لقد حولها العقم إلى شريرة على درجة عالية من الحقد، إلى درجة أنها حلمت باختراع طريقة خرافية من أجل مسح ذاكرة الناس وجعلهم يصدقون أن الطفل هو ابنها وأن سارة لا وجود لها على الإطلاق. كان حميد يعرف بما تفكر فيه جيداً، فقد خبرها في جميع المواقف طيلة السنين التي عاشاها معاً، لكن عشقه للمال وخوفه من الفقر والفاقة، حوله إلى خروف مطيع بين يديها لا يعارضها بشيء حتى لو قالت له إن اللبن أسود، يسارع بالموافقة ويقسم أن اللبن أسود بالفعل.

كبر الأمل في قلب سارة، وصارت تفكر في اللحظة التي ستحمل فيها طفلها الأول الذي سيغير قدرها ويزيل النحس من حياتها. ورغم أنها فقدت أي أمل من قدرة زوجها حميد على الوقوف بجانبها لمواجهة ابنة عمه فاطمة، إلا أن شعور الأمومة لديها كان يتفوق على كل المخاوف والمكائد التي يمكن أن تتعرض لها، كانت تحبس أنفاسها وهي تعد الدقائق والثواني التي تفصلها عن موعد الولادة، وكلما مضى يوم، شعرت بأن قدرتها على الصبر بدأت تنفد، لكنها تهدىء من أمرها وتقول في سرها إن من صبر كل هذه الفترة الطويلة، لن يغص بأيام

معدودات. لم يغب حميد عنها طويلاً في تلك الفترة، فإلى جانب الوقت الذي كانت تعطيه إياه فاطمة، كانت يتمكن من سرقة ساعات إضافية يقضيها عند سارة بين الحين والآخر، خاصة بعد أن دخلت شهرها التاسع، وبدأت عوارض المخاض تنتابها منذرة بقرب الموعد الذي يوازي حياتها كاملة.

في صبيحة يوم صيفي حار، لم تعد سارة تحتمل الوجع، وبدأت آلام المغص تشتد عليها وتستمر وقتاً أطول من العادة، فأرسلت في طلب حميد كي يأتي بالداية التي تولد نساء القرية عادة، وانبرت في سريرها تتقلب وتصرخ وحيدة لا تعرف ماذا يجب أن تفعل في مثل هذه الحالات، مضى وقت طويل ولم يأت حميد مع الداية كما يفترض، وظهر الولد غير معني بهذا التأخير، عندما بدأت صراخ سارة يشتد وراحت تشعر بابنها يتحرك بقوة، أيقنت أنها ستلد وحيدة. كانت لحظات مصحوبة بآلام لن تنساها سارة طيلة عمرها، في ذلك الوقت فكرت طويلاً بأمها وأبيها، وانهمرت دموع الفرح والوجع من عينيها بغزارة، كأنما القدر حكم على الوليد الجديد أن يكون مزيجاً من الألم والأمل معاً. عندما وصل حميد مع الداية، كانت سارة تحمل ابنها بين ذراعيها بعد أن لفته بغطاء أبيض شفاف وهي تبتسم وتمسح الدموع بأكمامها، بينما كان صراخ الطفل الوليد يصل إلى البيوت المجاورة كأنه يقول للناس لقد أتيت.

لم يصدق حميد نفسه وهو يرى صبياً جميلاً بين ذراعي زوجته سارة، فراح يجهش بالبكاء هو الآخر، ويهمّ بتناول ابنه من بين يدي زوجته والفرحة لا تسعه. بينما كانت الداية تطلق زغاريدها القوية في الأرجاء فوصل صداها إلى بيوت القرية المجاورة فهرعت النساء كي يتبين الخبر. وحدها فاطمة من كان يبكي بحرقة في بيتها وهي تستمع إلى الزغاريد وصوت الجلبة التي راحت تتعالى من كل صوب عن نبأ ولادة سارة زوجة حميد. شعرت فاطمة بالقهر، وقالت في نفسها بأي وجه سأقابل الناس، هل من المعقول أن أشعر بالسعادة لولادة ضرتي زوجة زوجي؟ كانت تفكر في حكمة الله تعالى الذي وهبها كل شيء إلا نعمة الإنجاب، لكن إيمانها لم يتعاظم إلى الدرجة التي يجعلها تتعالى عن كراهيتها وحقدها على سارة، فلم تستطع تقبل الأمر برحابة صدر، على الأقل لتنفذ الاتفاق المعقود مع زوجها حميد بأن تأخذ الطفل فور ولادته ويعمد حميد إلى طلاق سارة وإعادتها إلى قريتها.

كان حميد يستقبل المهنئين الذين جذبهم صوت الزغاريد، بعد أن هرع إلى السوق بسرعة وجاء بكميات من الرطب والقهوة العربية احتفالاً بقدوم وليده البكر. راح حميد يدور بين الحضور المجتمعين في فناء البيت، يوزع الضيافة عليهم ويرد على المباركات التي تتهافت عليه من كل صوب، ثم لا يلبث أن يدخل إلى المنزل كي يطمئن إلى زوجته سارة وطفلها، وبقي على هذه الحال إلى أن غطت سارة وطفلها

في نوم عميق بعدما نال منهما التعب والإعياء.

قضى حميد ساعات طويلة في بيت زوجته سارة، بانتظار استيقاظها مع الطفل، وكان ينشغل بالضيوف وتلقي التبريكات، حتى أوصلت إليه إحدى النساء رسالة من زوجته فاطمة تطلب منه الذهاب إلى البيت بسرعة. لم يكن من أمر حميد إلا الامتثال فانتظر قليلاً حتى بدأ الضيوف بالمغادرة، وهرع إلى زوجته فاطمة قبل أن يشتد بها الغضب فتسلبه فرحته بقدوم طفله الذي انتظره طويلاً. كان حميد يحفظ فاطمة جيداً ويعرف حساسية موضوع الإنجاب النسبة إليها، لهذا لم يكن يستغرب أن تأتي إلى بيت سارة وهي فاقدة لأعصابها ثم تبدأ تكيل له الكلمات التي تخفف من شأنه أمام الضيوف. دخل حميد على فاطمة وكان الشرر يتطاير من عينيها اللتين توقفت عن ذرف الدموع قبل وصول حميد بقليل. حاول أن يلاطفها كي تشاركه الفرحة التي يشعر بها بعد انقضاء كل تلك السنوات التي قضاها بدون طفل، لكنها لم تستطع لجم غضبها فسارعت إلى مطالبته بتنفيذ الاتفاق المبرم بينهما والقاضي بطلاق سارة مباشرة بعد الولادة وأخذ الطفل وإعادتها إلى قريتها البعيدة لأن مهمتها انتهت ولا حاجة لبقائها على ذمته.

تنفس حميد الصعداء، وأرسل تنهيدات طويلة كأنه يبحث عن كلمات مناسبة لا تزيد من غضب زوجته فاطمة، فهو يعرف الأثمان التي يجب

عليه دفعها إذا ما عارض أو خرج عن طوعها خاصة في تنفيذ الأمر المصيري بالنسبة إليها. فسارع إلى التأكيد على التزامه بالاتفاق المعقود بينهما لكنه سينتظر حتى تتعافى سارة من آلام الولادة وتسترد صحتها، حتى لا يتسبب بانتكاسة مرضية قد تودي بحياتها. أعاد حميد مراراً على مسامع فاطمة، عبارات الحب وأكد مكانتها الكبيرة في قلبه التي لا يزاحمها فيها أحد حتى لو كانت سارة أم ابنه. فهو سيعمد بعد أيام قليلة لطلاق سارة وإعادتها إلى قريتها لتكون فاطمة أمه فتربيه على يديها وتعتني به كأنه طفلها تماماً. كلمات كثيرة بذل جهده أن تكون صادقة معبرة تنال رضا فاطمة وتجعل روحها تستقر بعدما شاهد بأم العين علامات الزبد تكاد تخرج من فمها وهي تبلع ريقها في كل لحظة كأنها تتمالك أعصابها وتمنع نفسها من الانقضاض على رقبته لتخنقه وتتخلص من كل هذا الوضع الذي جعلها مثالاً للعقم بينما كانت سارة مثالاً للولادة والخصب.

بشق النفس، اقتنعت فاطمة بكلام حميد، وسمحت له بالعودة إلى بيت سارة من أجل ضمان سير الأمور حسب الاتفاق الذي بينهما. أحس حميد بلهفة تدفعه للمغادرة جرياً على الأقدام كي يشاهد طفله الرضيع، لكنه لجم كل حماسته تلك حتى لا تتفاقم الكراهية وتتقد أكثر في داخل فاطمة التي كانت ترتجف كأنها مصابة بحمى شديدة جعلت عينيها تائهتين ووجهها شاحباً وأصابعها ترتجف. بعد أن أحس

بسريان الهدوء في عروق فاطمة، طبع قبلة على جبينها منتظراً علامة الموافقة على مغادرة المنزل والاتجاه إلى بيت سارة، وما إن رمشت فاطمة بعينها اللامعتين من شدة الدموع، حتى هرع حميد إلى الخارج كأن مسّاً قد أصابه، كان يلتهم الطريق بخطواته السريعة ويرد على بعض الأهالي الذين يصادفهم بعبارات الشكر والامتنان لمشاركته فرحته الكبرى. لم يتمكن حميد من ضبط نفسها فبادر إلى تقبيل جبين سارة عدة مرات بعد أن وجدها قد استيقظت على بكاء رضيعها الجائع فأعطته صدرها واستسلمت لذلك الشعور الرائع الذي يؤكد أنها قد أصبحت أماً.

مضت عدة أيام، وفاطمة تلاحق حميد من أجل الإسراع في تنفيذ الاتفاق، بينما كان يستمهلها حتى تستعيد سارة قواها وتصبح قادرة على السفر. كانت تلحق به إلى بيت سارة وتبدأ بالصراخ من الخارج، فيهرع مسرعاً يلبي بعض الطلبات التي تتذرع بها من أجل ألا يتفرغ لسارة وطفله فينسى أنها هي الزوجة الأساسية التي سيعود إليها الطفل مثلما تعود إليها كل الأملاك التي يتمتع بها هو شخصياً. كان حميد يعرف كل هذه التفاصيل من دون أن تنطق بها فاطمة بشكل مباشر. وعندما استعادت سارة صحتها وظهر الوليد سليماً لا يعاني من أي خطب، حسمت فاطمة الأمر وطلبت من حميد تنفيذ الاتفاق في الحال دون تردد، وقد حذرته من المماطلة أو التردد الذي تلاحظه

عليه كلما ذكرته بطلاق سارة وإعادتها لقريتها. هزّ حميد رأسه موافقاً ثم أردف إنه لن يخالف لها أمراً كعادته طيلة سنوات زواجهما، راجياً أن تمهله للغد حتى يتمكن من تمهيد الأمر بشكل متدرج لسارة حتى لا تصاب بأي صدمة تؤثر على الطفل الذي ترضعه من حليبها.

لم تكن كمية النذالة التي يحملها حميد، كافية لأن تدفعه إلى سلب سارة طفلها الرضيع ومن ثم طلاقها وإعادتها لأهلها وحيدة بعد أن أدت دورها على أكمل وجه. فحاول أن يجد مخرجاً يحفظ ماء وجهه على الأقل أمام أهله وجيرانه من أهل القرية الذي لاشك سيتحدثون بالأمر ويجعلون السخرية منه محور أحاديثهم لسنوات طويلة. في ذلك اليوم ظهر حميد وكأنه يحمل عبئاً ثقيلاً على ظهره، وقد لاحظت سارة بفطنتها طبيعة الهواجس التي تنتابه لكنها لم تكن تتخيل أن يصل به الأمر إلى درجة سلبها ابنها بعد طلاقها. حاول حميد إيجاد كلمات مناسبة تمهد لفعلته الشنعاء، لكن فراسة سارة كانت تخيفه وهي المعروفة بمعرفة المكاتيب من عناوينها، فآثر الإغراق في التفكير والبحث عن أسلوب ينقذه من تلك الورطة. كان يسلي نفسه بحمل ابنه والغناء له ومداعبته وطبع القبلات على جبينه، بتلك الطريقة كان يهرب من مواجهة عيني سارة اللتين كانتا تراقبانه بدقة بالغة. هكذا قضى كل وقته عند سارة ولم يقدر على مواجهتها بشيء مما وعد به زوجته فاطمة، وعندما غادر عائداً إلى المنزل، كانت فاطمة بانتظاره

وهي مستعدة لتلقي الخبر الذي يحمله وهو طلاق سارة والاستيلاء على الطفل. خلال تلك الفترة، كانت فاطمة قد أعادت نظرها في الأمر، فعلمت أن طلاق سارة ورحيلها من دون طفلها إلى القرية، لن يمنعها من العودة للمطالبة بحقها الشرعي بحضانته، وربما نتيجة لذلك يرق قلب زوجها ويصبح أكبر من طمعه بالأملاك والمال الذي توفره له، فيقرر التخلي عن كل شيء مقابل العودة إلى أم ابنه والبقاء مع طفله. كل هذا كان ينتاب فاطمة ويفتك بعقلها ويجعلها أكثر شراً وحقداً، إلى جانب خشيتها من نظرات الاستهجان من أبناء قريتها الذين سيشعرونها بالعار لما ارتكبته. كل ذلك كان يدور في خلد فاطمة طيلة المهلة التي طلبها حميد حتى تستعيد سارة صحتها وتتعافى من آلام الولادة، ليبدأ إثرها بتنفيذ بنود الاتفاق المبرم معها.

دخل حميد على فاطمة، وهو يستعد لمواجهة موجة عارمة من الغضب بانتظاره، ولم يكد يلقي السلام، حتى باغتته بوابل من الأسئلة حول ما فعله مع سارة وهل أخبرها بقرار الطلاق والاحتفاظ بالطفل، أم إنه تردد ولم يعرف ماذا يفعل كالعادة؟ لقد نسيت فاطمة المهلة التي طلبها حميد من كثرة تفكيرها بالموضوع، وعندما ذكرها بالمهلة الممتدة للغد من أجل حسم الموضوع، تمالكت نفسها وأخبرته بأنها عدلت الاتفاق بعد تمحيص وتفكير كبيرين. فغر حميد فمه وجحظت عيناه ثم دعا الله أن يتطلف به من طلبات فاطمة وشروطها التي لا تنتهي.

جلس حميد بانتظار قائمة التعديلات الجديدة التي ستلقيها فاطمة على مسامعه. ولم تكن لتتمهل حتى يلتقط أنفاسه، فصدمته بقرارها حول ضرورة طلاق سارة وإيصالها إلى قريتها مع طفلها، لأنها غيرت رأيها ولم تعد تريد تبني طفل ليس طفلها، لأنها لن تشعر بأي عاطفة تجاهه. صُعق حميد من الشرط الجديد الذي يعني سلبه فلذة كبده وزوجته في آن معاً، ولم يستطع أن ينطق بحرف، كأنه فقد القدرة على الكلام، ولم يعد يعرف ماذا يرد على فاطمة التي كانت تخفي ابتسامة خبيثة وتحدق في وجهه بقوة كي ترى ماذا ستكون ردة فعله. حاول حميد أن يثنيها عن قرارها بالقول إنه المتضرر الأكبر من هذا القرار الذي يحرمه ابنه، فكان جواب فاطمة حاسماً إذ أعطته الحرية بأن يلتحق بزوجته وطفله إذا لم يعجبه هذا القرار. لم يجب حميد بكلمة واحدة بل غادر المكان هائماً على وجهه في شوارع القرية، ولم يجد نفسه إلا أمام باب زوجته سارة فدخل مسرعاً إلى حيث ينام طفله وشرع بتقبيله وضمه إلى صدره بحنان لم تعهده سارة التي اكتفت بمراقبته بصمت وهي تشعر بأمر جلل ينتظرها تؤكده التقلبات الكثيرة التي مر بها حميد خلال الفترة الأخيرة.

أحست فاطمة بسكينة لم تشعر بها من قبل بل اتخاذ قرارها الأخير المتعلق بالخلاص من الطفل وأمه في آن معاً، حتى إنها عادت بالذاكرة إلى الوراء قليلاً واستغربت كيف وافقت حميد على زواجه الثاني وكيف

تخيلت أن بإمكانها تبني طفل ليس من لحمها ودمها. كانت فاطمة تشعر بعبء تلك المرحلة التي جعلتها تتحمل المعاناة بلا مقابل لمدة طويلة. لكنها الآن باتت تشعر بالتحرر من هذا الهاجس المليء بالثغرات التي ستنغص حياتها المستقبلية بالتأكيد.

في اليوم التالي، ذهب حميد إلى زوجته سارة، وأخبرها أنه يفكر بزيارة أهلها في القرية بعد ذلك الغياب الطويل من أجل الاطمئنان على عمها أبي سالم وأسرته، وحتى يشاهدوا المولود الجديد الذي يشبه جده أبا راشد كما قالت سارة. حاول حميد أن يبدو الأمر طبيعياً لا غبار عليه ولا شكوك، وفي نهاية الحديث طلب منها أن تجهز نفسها للسفر صباح اليوم التالي من أجل الانطلاق مبكراً إلى قرية أهلها. لم تجبه سارة بشيء، رغم أنها كانت تشعر بمكيدة ما تنتظرها وراء قرار حميد المفاجئ بزيارة أهلها وهو من كان يتحجج بالمشاغل الكثيرة التي تمنعه من القيام بتلك السفرة وبالمسافات الطويلة التي تفصلهم عن قرية أهلها، وهي الأعذار التي يكررها كلما طلبت منه أن يقوما بتلك الزيارة ولو كنوع من الواجب.

عاد حميد إلى المنزل مساء وكان مهموماً حزيناً، فأخبر فاطمة بعزمه على الرحيل باكراً مع سارة وابنه إلى قرية أهلها من أجل إيصالها كما يقتضي الاتفاق، لكنه لم يتجرأ على إخبارها بأنه لم يطلق سارة وأنه

وصف الزيارة بالعادية من أجل الاطمئنان على أهلها. أثلج الخبر قلب فاطمة، واستطاعت ليلتها أن تغط في نوم عميق أرادت ألا تستيقظ منه إلا بعد مغادرة سارة وابنها من هذا المكان. في الصباح الباكر وقبل شروق الشمس، كان حميد وسارة يغادران باتجاه قرية أهلها، كان حميد يريد الوصول بأسرع وقت ممكن ليتخلص هو الآخر من هذا العبء الذي أنهك قواه طيلة هذه الفترة التي قضاها رازحاً تحت ملاحقات فاطمة وضغوطها التي لا تنتهي. لقد قرر أن يفضل حياة الاستقرار والمال الوفير والأملاك الكثيرة، على شعور الأبوة ورعاية طفله الوحيد. كانت سارة تلتهم الطريق بعينيها، وتحدق بالجبال الصخرية التي اشتاقت إليها كثيراً، تذكرت والدها في سفرياته الكثيرة على هذا الطريق، واستعادت أحاديثه عن لحظات الشروق الساحرة عندما يبدأ قرص الشمس بالارتفاع رويداً إلى كبد السماء ساحباً خلفه هالة كبيرة من الضوء. ظهرت سارة غير مهتمة بما يخبئه حميد وراء قرار الزيارة، فكانت تضم ابنها إلى صدرها بحنان وتكتفي بذلك الشعور الذي لن تتخلى عنه مهما كانت الظروف. كانت تحمد الله بقوة وهي تغادر حدود القرية كأنها خارجة من مستنقع خنقها ومنعها من التفكير والحركة طيلة وقت طويل، كان يكفيها أنها نجت ولو لحين من فاطمة وزوجها ضعيف الشخصية، وتمني نفسها برؤية مريم وبنات عمها أبي سالم وزوجته أم سالم، تخيلت نفسها وهي تحمل طفلها أحمد الذي اختار له أبوه هذا الاسم، إلى مسافة قريبة من بيت أهلها القديم، لتحدث روح

أبيها عن حفيده الذي يشبهه كثيراً بعد أن جاء لزيارته بعد هذه السنين الطويلة. خططت سارة للذهاب إلى مزرعتهم القديمة، وقررت أن تمشي برفقة مريم على الدروب نفسها التي كانت تمشيها مع أبي راشد، كأنها تسترد حقاً اغتصبه الآخرون منها. رغم كل المخاوف والقلق مما يخفيه حميد، إلا أن سارة كانت مطمئنة هادئة يغزوها شعور النجاة من واقع لم يكن ينتمي إليها بشيء. طول الطريق كان حميد يحلم بما وعدته به فاطمة من أموال وأملاك جديدة ستهبه إياها شرط أن ينسى سارة نهائياً هي وابنها وألا يقوم بالاتصال بهما نهائياً بعد طلاقها وإيصالها للقرية، كانت فاطمة تخاف من أن تعود سارة إلى حياة حميد وتستغل ضعفه عن طريق ابنها، في حين لم يكن حميد مشغولاً إلا بالحصول على المال والأراضي التي وعدته بها، فصار يحسب كم سيصبح رصيده والمشاريع التي سيقوم بها بعد إنجاز هذه المهمة الصعبة.

ساعات طويلة قضاها الاثنان على الطريق، دون أن يفتح حميد أي حديث مع سارة، وعندما لاحت أطلال القرية من بعيد، اكتفى بتنفس الصعداء لشعوره بقرب التحرر من هذا العبء، لم يختلف الشعور الذي انتابه عن شعور سارة وهي تغادر قرية حميد الغريبة التي قيدتها وأهانتها بعدما اعتادت الحياة الكريمة. كانوا يتجهون بسرعة نحو بيت أبي سالم، بينما سارة تحاول مشاهدة البيوت والمزارع الممتدة على أطراف القرية كأنها تُطمئن نفسها أن كل شيء على ما يرام.

-9-

قبل الوصول إلى بيت عمها، أثارت قلقها شوارع القرية الخالية من الحركة تقريباً، فهي تعرف عادات أهلها جيداً في هذا الوقت من النهار، لكنها حاولت أن تهدىء روعها ريثما تصل إلى المنزل. وما إن انعطفوا نحو بيت عمها أبي سالم، راعها مشهد الناس المتجمعين أمام البيت، أصيبت سارة بالهلع لأن الناس لا يجتمعون هكذا إلا لأمر جلل. كلما تقدموا باتجاه البيت كانت ضربات قلبها تزداد شدة، ولما وصلوا، شرع حميد بإنزال الهدايا التي حملها من التمر والدبس والقمح والقهوة، بينما ركضت سارة وهي تحمل طفلها الرضيع بسرعة مخترقة الجموع إلى الداخل تستطلع الخبر، ففوجئت بابنة عمها مريم وهي تبكي وتنوح بشكل مرتفع وتنعي والدها بتفجع كبير، لم تتمالك سارة نفسها وقد تأكدت أن عمها أبا سالم قد مات، فسقطت مغمية على الأرض من هول الخبر، وسارعت النساء إلى التقاط الطفل من يديها وقمن بجلب الماء ورحن يرششنه على وجهها حتى استيقظت وهي في حالة من الانهيار الكامل. في ذلك الوقت، كان حميد يندب حظه على هذه المفاجأة غير المحسوبة التي ستؤخر عودته لقريته حيث تنتظره فاطمة بفارغ الصبر، لاسيما أنها أصرت عليه أن يعود في اليوم نفسه وألا يتأخر. فعدل عن قراره بإخبار سارة بأمر طلاقها وتركها مع طفلها عند بيت عمها، لأن الوقت غير مناسب لهذا الكلام، واضطر للبقاء مع

العائلة حتى تنتهي مراسم الدفن والعزاء حيث من غير المنطقي أن يغادر متجاهلاً وفاة أبي سالم بهذا النحو المفاجئ خاصة أنه بمنزلة أب حنون لسارة.

أيام عصيبة مرت على بنات عمها وزوجة عمها أم سالم، بعد رحيل عمها أبي سالم الذي كان بمثابة الظهر القوي والسند الثابت لجميع البنات ولأهل القرية أيضاً، كانت الفاجعة بالنسبة للجميع كبيرة وكارثية إلى أبعد حد، ولم تصدق سارة وبنات عمها أنهن سيتجاوزن ذلك الحزن ليتقبلن حقيقة موت أبي سالم، كن كلما نظرن في وجوه بعضهن، ازدادت حدة البكاء وتصاعدت وتيرة النحيب. وكان حميد يحسب الوقت بالدقائق حتى ينتهي فترة طقوس العزاء ويرجع إلى قريته، فكان يجالس رجال القرية في المجلس وهو شارد الذهن يخشى أن تأتيه فاطمة إلى القرية بعد تأخره الكبير عليها، فتقوم بفضحه أمام الناس معتقدة أنه قرر البقاء مع سارة وطفله الوحيد.

لم تنته أيام الحداد إلا بشق النفس عند حميد، فسارع إلى مغادرة القرية بعد أن أعطى سارة بعض المال ووعدها أن يعود لأخذها بعد عدة أيام لأن بنات عمها بحاجتها في هذه الظروف الصعبة، في حين لم تهتم سارة بأمر حميد، فقد أصيبت بجرح عميق لا يندمل برحيل عمها أبي سالم وكم تمنت لو أنها تمكنت من رؤيته قبل أن يرحل بهذا

الشكل المفاجئ. في تلك الأيام تذكرت رحيل والدها، وبكت بحرقة حظها العاثر الذي خطف منها كل محبيها، كانت تنوح بصوت مرتفع وتردد الأشعار الجنائزية مستذكرة مآثر عمها وحنانه الكبير عليها، ومرات كانت تنادي أبيها كي يلاقي أخاه بالترحاب في جنان الخلد. فطرت سارة قلوب المستمعين، وكان صوت نواحها يصل إلى مجلس الرجال فيجهشون بصمت، بينما النساء المحيطات بسارة، يرافقنها في نواحها ويرددن الكلمات وراءها وقد سحرتهم فصاحتها وحفظها لتلك الأشعار التي تبكي الحجر.

مضت أيام طويلة قبل أن يهدأ الحزن قليلاً في قلوب بنات الأسرة، وقد استعنّ بالإيمان وقراءة القرآن وزيارة قبر والدهن يومياً عند ساعات الصباح الأولى، لقد فتك الحزن بهنّ وجعل وجوههن شاحبة صفراء كأنهنّ أشباح، ومع الوقت كنّ يستعدن زمام أنفسهن، وقد ساعدهن في ذلك وجود الطفل أحمد، حيث كنّ يتناقلنه بين أذرعهن ويبكين بحرقة متمنين لو أن أبا سالم تمكن من رؤيته قبل الرحيل. كان موت أبي سالم قاسياً على جميع أبناء القرية، ذلك الكبير بهامته وأخلاقه ونصرته للمحتاجين، تسبب بجراح لا تندمل لأبناء قومه بهذا الرحيل القاسي، فلم يكن أحد منهم يتخيل كيف سيعقد مجلس القرية بلا أبي سالم بعد اليوم، وكيف ستحل المشكلات المفاجئة التي يتعرض لها أهل القرية، ظهر رحيل أبي سالم وكأنه سبب حالة يتم لجميع من حوله.

حاولت سارة التخفيف عن بنات عمها في مصابهم الجلل بعد أن تمالكت نفسها قليلاً، وهي المعروفة بالحكمة والصبر، فكانت تحدثهن عن قدر الله الذي لا اعتراض عليه، وعن أعمال عمها الخيرة التي تؤهله لنيل مكانة مرتفعة في الجنة إلى جانب أخيه أبي راشد، وكانت تذكرهن ألا يغرقن في الحزن ولا تضعف ثقتهن بالله سبحانه وتعالى لأن ذلك يغضب أبيهن الراحل الذي سيكون أكثر راحة في مثواه الأخير عندما تتجاوزن محنتهن بالصبر والدعاء لأن الموت حق على جميع أبناء البشر.

جهود كبيرة بذلتها سارة في تلك المرحلة وكان كل يوم فيها أصعب من الآخر، من أجل الوقوف بجانب بنات عمها وزوجة عمها حتى يتمالكن أنفسهن ويخرجن من تلك المحنة بأقل قدر ممكن من الخسائر. كان على مريم أن تسير في الدرب نفسه الذي سلكته سارة عند وفاة والدها، فكانت تأخذها إلى البرية وباتجاه مزرعة أبي سالم. حدثتها سارة عن الحكايات التي يحبها أبوها، كما قرأت عليها مجموعة الأشعار العربية القديمة التي كثيراً ما كان يرددها، قالت لها إن مصيبتها أهون مما جرى لها عندما فقدت أباها أبا راشد، فحينها فقدت كل شيء حتى البيت والمزرعة والسيارة وكل أثر كان يذكرها به، حكت لها عن ألمها الكبير بسبب رحيل أمها ومغادرتها القرية بسبب الزواج من رجل غريب، تاركة صبية بعمر النضوج وراءها، تحدثت سارة بحزن كبير

على أبيها وعمها، وأخبرت ابنة عمها مريم عن عزمها على مناداة ابنها الصغير بأبي راشد تيمناً بوالدها. كانت الاثنتان تتحدثنا وقلبهما يعتصرهما الحزن، لكن اقتنعتا بأن قدرهما أن يتعاضدا في مواجهة تلك العاصفة التي ضربت عائلتهما منذ سنوات ولم تهدأ رياحها حتى اليوم. ترك رحيل أبي سالم حزناً كبيراً في قلب مريم، ولم تكن تريد أن تثقل على كاهل أمها وأخواتها البنات بكثرة الشكوى، فكانت تتظاهر بتمالك نفسها مستعينة بإيمانها الكبير بحكمة الله تعالى، لكن في قرارة نفسها كانت تتلاشى كغيوم الصيف عندما تختفي رويداً بفعل الحرارة القوية.

تفاعل رحيل أبي سالم في قلوب نساء الأسرة وأنهكها برماح الحزن التي كانت تنغرس في صدورهنّ وتدميها بلا رحمة. وكلما مر مزيد من الوقت، خف وطء الحزن عن قلوبهن وتماثلت أرواحهن للشفاء. كانت سارة بالنسبة إلى بنات وزوجة عمها، هبة من الله في ذلك الوقت، فقد وصلت حين وفاة أبي سالم، واستطاعت أن تشكل سنداً ولو كان واهياً حماهنّ من تلك الفاجعة، رغم أن سارة كانت تمني النفس بتنفس الصعداء والشكوى لبنات عمها عما حصل معها في تلك القرية الغريبة، فاكتشفت أن عليها أن تواسيهن عوضاً عن مواساتهن لها. مرت الأيام طويلة ولم يظهر حميد ولا وصل أي خبر عنه، لم يحاول أن يسأل عن ابنه الصغير أو يرسل بعض المال من أجل توفير احتياجاته

الخاصة، وكان على سارة أن تبحث عن الحلول التي لم يكن من ضمنها الاتصال بحميد أو البحث عنه أو الذهاب إليه في قريته البعيدة. كان الغضب يكبر في قلبها مما فعله حميد بها. وقررت أن تلغيه من حياتها وكأنه مات مع عمها أبي سالم. كل يوم كان يمضي، كانت سارة تدفن فيها حميد وتعمق حفرته بحيث لا يمكنه الخروج أبداً، حتى وصلت إلى مرحلة اعتبرت نفسها أرملة في هذا العالم وعليها البحث عن حلول لحياتها مع ابنها الصغير.

-10-

أيام طويلة مضت منذ أن مات أبو سالم، وبدأ الجميع يعودون إلى حياتهم الطبيعية رويداً. حاولت سارة أن تتقصى أخبار حميد قبل أن تقوم بدفنه نهائياً وتعتبره غير موجود في حياتها. فسألت البحارة والمسافرين وتجار القرية الذين من عادتهم السفر بين القرى المختلفة، لكنها لم تحصل على خبر عنه. وبعد فترة جاء إلى بيت عمها رجل من قرية زوجها البعيدة، فأخبرها بأن حميد اختفى منذ زمن بعيد عندما فقد كل ماله وممتلكاته وتخلت عنه زوجته فاطمة وتركته، فآثر الهجرة خارج القرية هرباً من شماتة الناس ونظرتهم المتشفية به، واليوم لا يعرف أحد مكانه. شعرت سارة بأنها عملت ما عليها تجاه حميد الذي تخلى عنها، وقررت نسيانه بشكل كامل، رغم أنها كانت تحدث ابنها

أحمد عن أبيه وزيارته المرتقبة بعد عودته من السفر. لم تعرف سارة أن هذا الرجل الغريب القادم من قرية حميد، لم يكن إلا مرسالاً بعثته فاطمة حتى يقضي على كل حلم لديها بعودة حميد وحتى تعزف عن أي محاولة للبحث عنه أو الاتصال به. لكن فاطمة لم تعرف بأنها أراحت سارة بهذا الشكل وجعلتها تنهي أي أمل بعودة حميد وتقرر الاعتماد على نفسها.

فكرت سارة ملياً ماذا تفعل كي تؤمن حياتها مع ابنها الصغير الذي بدأت خطواته الأولى على الأرض وزادت متطلباته، ولم يكن خيار البقاء في بيت عمها أبي سالم مقبولاً بالنسبة إليها فهي لا تريد أن تثقل عليهم مع ابنها خاصة بعد رحيل عمها أبي سالم حيث قلت لديهم الموارد وأصبحوا بحالة لا تحتمل المزيد من المصاريف. قامت سارة بحساب كمية المال التي تركها حميد لها، ثم قامت ببيع ما تحمله من ذهب كانت تحمله منذ يوم عرسها. ثم باعت بعض المقتنيات الخاصة، وقامت بشراء منزل صغير متواضع في القرية استقرت فيه مع ابنها، قانعة بحظها من هذه الدنيا. بدأت سارة بإعداد جميع أنواع الطبخ وبيعه للبحارة والتجار العابرين والمسافرين ولأهالي القرية الذين أعجبوا بمهاراتها الكبيرة في إعداد الطعام، كان ابنها أحمد قد بلغ سنته الأولى، فقررت سارة ألا تحرمه شيئاً وأن تقوم بتربيته كالرجال فتعلمه خلاصة خبراتها التي ورثتها عن أبيها، ومع الوقت استعاضت

عن اسم أحمد لتناديه بأبي راشد على اسم جده، بعدما تحدثت كثيراً عن مآثره وأخلاقه وكرمه، فكان أحمد يعتز بجده كثيراً دون أن يعرفه.

استطاعت سارة أن تقف على قدميها، وتمكنت من تأمين متطلبات عيشها مع ابنها الصغير الذي راح يشب ويتحول إلى أنيس وسند لها، كانت تدربه يومياً على الحياة وتأخذه في زيارات إلى البرية وتشير إليه إلى بيت أهلها القديم، وتتحدث عن ذكرياتها مع جده أبي راشد وكيف كان يشرح لها أنواع النباتات وأحوال الطقس وأشكال الصخور واحتمالات وجود المياه الجوفية في هذا المكان أو ذاك. كان أحمد يصغي باهتمام إلى أحاديث أمه، ويعتز بانتمائه إلى جده المعروف بأنه من وجهاء القرية الذي مازالت ذكراه على ألسنة الناس حتى اليوم. مع السنوات، كانت سارة تظهر أكثر صلابة وقدرة على ابتكار الحلول لمختلف المشاكل التي تعترضها، وكثيراً ما كانت تقول لابنها أن ما مر على رأسها تشيب له الرؤوس، لكنها تمكنت بعون الله تعالى من تجاوز كل ذلك والنجاة به وبنفسها إلى أن حطت الرحال في قرية أهلها التي تسكن إليها روحها وتسكن فيها ذكرى من أحببتهم في طفولتها وريعان شبابها. كان أحمد يعتز بأمه أكثر كلما أخبرته عن ماضيها وطفولتها وأهلها وبيت عمها، وكلما سألها عن أبيه تقول له إنه سافر منذ زمن بعيد على أمل أن يرجع يوماً لكن أخباره انقطعت ولم يعد أحد يعرف عنه شيئاً، إذ ذاك كان أحمد يشعر بالحزن ولا يستطيع أن يستوعب

فكرة أن يتركهما والده وحيدين في هذا الدنيا يعانيان الفاقة دون أن يحاول الاتصال بهما وتقديم يد العون لهما.

امتلكت سارة من القوة ما أهّلها لتهون كل شيء أمام ابنها، وكلما مر الوقت وكبر أحمد قليلاً، تعاظمت آمالها بابنها الوحيد الذي يعتبر ثروتها في هذه الدنيا. كرست سارة وقتها لتعليم أحمد ونقل خبراتها في الحياة إليه، فكانت تعيد ما فعله أبوها مع منذ أن كانت صغيرة، جلبت له الكتب وصارت تحكي له القصص، فصار مثالاً يحتذى بين أقرانه رغم صغر سنه. عندما شب أحمد عن الطوق قليلاً، فكر في طريقة يساعد بها أمه التي كانت تدأب ليل نهار في تجهيز الطعام وتأمين الطلبات التي تصلها من الصيادين والفلاحين والمسافرين العابرين للقرية، صارت معروفة بالنسبة للجميع بهذا العمل المتقن، فتمكنت من تحقيق شهرة كبيرة خلال سنوات من العمل الجاد والشاق. كانت سارة سعيدة بما وصلت إليه من حلول ضمنت لها حياة كريمة لابنها ولنفسها، وفي ساعات ما بعد المساء عندما تنتهي من أعمالها وتأخذ قسطاً من الراحة، تبدأ بالحديث مع ابنها منفذها الوحيد في هذه الدنيا، كانت تشرح له كم كان جده مشغولاً بتأمين أسباب الحياة الكريمة لعائلته، إلى درجة أودى به هذا الهاجس وأدى لرحيله المبكر بسبب عملية النصب التي تعرض إليها من قبل إسماعيل الغريب الذي سرق كل أملاكه وهرب ولم يعد يعرف أحد عنه شيئاً. لم يكن هناك

فرق بالنسبة إليها بين إسماعيل وزوجها حميد، فالاثنان قاما بالفعلة نفسها لكن بشكل مختلف، إلى درجة أنها كانت تتساءل ما الحكمة من تعرض هي ووالدها لهذا الاحتيال والغش الذي كان مؤثراً وأدى إلى تدمير حياتهما بشكل ما؟ ورغم أن سارة حجبت الكثير من معاناتها عن ابنها أحمد، إلا أنه كان يحس بها ويعرف أن آثار تلك الأحداث لابد أن كبيراً على روحها وقلبها المثقل بالهموم.

خففت علاقة مريم بسارة الكثير من هموم الاثنتين بعد أن تشابهت ظروفهما وأصبحتا يتيمتي الأب، كانت مريم تزورها ابنة عمها كل يومين تقريباً، فتساعدها في إعداد الطعام وتجلسان ساعات طويلة وهما تتناقلان الأحاديث التي هونت عليهما معاناة الحياة وصعوبات الفقد الذي تعرضتا له. انشغلت مريم على الدوام بالتفكير في مستقبل أخواتها، فكانت تعمل في الخياطة وتحاول مع أمها أن تدير بعض الأعمال التجارية البسيطة التي تركها أبو سالم، كما تابعت أم سالم إكمال جميع الاعمال الخيرية التي كان زوجها يؤديها للمحتاجين وغير ذلك من الالتزامات على قدر استطاعتها، فقد اعتبرت ذلك أمانة في عنقها لابد أن تؤديها حتى لو جارت على نفسها وبناتها وزادت التقتير في المصروف. كانت سارة تسأل زوجة عمها إن كانت سمعت أي خبر عن أمها عليا، وتستغرب لماذا غابت كل هذه السنوات دون أن تسأل عن ابنتها ومن غير أن تفكر بزيارة القرية ولو مرة واحدة طيلة هذه

السنوات التي مرت. ولم يكن بيد أم سالم إلا أن تبادر إلى تهدئتها والقول إن الغائب عذره معه، ومن الممكن أن ظروف عليا وعلاقتها مع زوجها حالت دون أن تأتي إليهم طول هذه المدة. كثيراً ما فكرت سارة بأن أمها قد ماتت ولم يصلهم الخبر، وكان تلك الفرضية تعطي لعليا بعضاً من العذر عند سارة التي لم تستطع أن تنسى ما تعرضت له من إهمال بسبب غياب أمها بلا علم أو خبر.

-11-

أصبح أحمد يافعاً، ولم يعد يقبل أن تعمل أمه في إعداد الطعام للصيادين والمسافرين، فبدأ بتعلم بعض الأعمال التجارية البسيطة عبر البيع والشراء من الأسواق المجاورة، وجلب ما يطلبه الزبائن من حاجيات لا تتوفر في قريتهم، فكان يغيب معظم ساعات النهار ويعود عند المساء منهكاً من التعب ويرى سعادة أمه وهي تناديه بأبي راشد فيرد عليها النداء وهو يبتسم. استطاعت سارة أن تساعد ابنها فيما ادخرته من مال قليل، فافتتح عمله الخاص وصار لديه دكان صغير يبيع فيه الحبال للصيادين مع التمر والدبس وبعض المعدات المتعلقة بالزراعة، وخلال فترة طور أعماله واستطاع شراء مزرعة صغيرة قريبة من المنزل، فكانت أعماله تتطور أمام ناظري أمه فتشعر أنه يشبه جده بالفعل والقول، خاصة عندما أصبح مثالاً للأمانة والصدق في

البيع والشراء والالتزام بالوعد، ما أهله لأن يكون محط ثقة التجار الذين كانوا ينادونه بأبي راشد الصغير ويقولون إن من خلف ما مات.

لم يكتف أحمد بحفظ الحياة الكريمة لأمه فقط، فلم يكن ينسى ما فعله بيت عمه أبي سالم عندما استقبلوا أمه في بيتهم وقدموا لها كل أسباب الرعاية والحنان، فكان يحرص على زيارة أم سالم بعد أن طعنت في السن لمساعدتها وتقديم الدعم المالي لها، وكم كانت سارة فخورة بهذا التصرف الذي يؤكد أن أبا راشد الصغير قد مثل شخصية جده خير تمثيل. شعرت سارة أن الأيام بدأت تبتسم لها، وأن ما فاتها من سنوات في صباها، تراه يتحقق الآن على يد ابنها بعد أن عوضها عما فقدته وأعزها ووفر لها كل متطلباتها بعد أن تركت العمل وتفرغت للبيت الذي قام أحمد بتوسيعه وبناء عدة غرف فيه مع مضافة كبيرة.

في إحدى المساءات وبينما كانت سارة تعد طعام العشاء لابنها الذي اقترب موعد عودته من العمل، سمعت صوت أحمد وهو يدخل من البوابة الرئيسية للمنزل، فأسرعت لاستقباله، لكنها أصيبت بالصدمة، لأنها وجدت نفسها أمام أبيها بلباسه ونظرته وابتسامته المعروفة، حدقت وهي فاغرة فمها معتقدة أنه حلم، لكن أحمد تقدم إليها وقبل يدها، وأخبرها أنه اختار أن يقلد جده أبي راشد في لباسه ومشيته إرضاء لها. فما كان من سارة إلا أن انهارت بالبكاء وهي تحمد الله على

هذه النعمة التي أرسلها الله إليها بولادة أحمد. أمسك أحمد بيد أمه ومشيا سوياً باتجاه غرفة المعيشة كي يتناولا الطعام، فقد كان يفضل الجلوس في هذه الغرفة لأنها مفروشة بالمدّ العربي، وبعد الانتهاء من الطعام يتناول كأساً من الشاي الخمير مع القرفة الذي تصنعه سارة بحب وهي تخاطبه بأبي راشد الصغير.

لم يكد الاثنان يرتشفان الرشفة الأولى من كوب الشاي، إلا وسمعا طرقاً قوياً على الباب، فتساءلا عمن يمكن أن يزورهما في هذا الوقت المتأخر من الليل. نهضت سارة بسرعة كي تفتح الباب، ولم تسمع كلام ابنها أحمد الذي لحق بها نحو البوابة خوفاً من أن يكون هناك خطب ما في الخارج. كانت سارة في إصرارها على فتح الباب بنفسها، شيء من الخوف الدفين والقديم الذي استيقظ مع أصوات الطرقات السريعة والقوية على الباب، ومن شدة خوفها على ابنها، فضلت أن تقوم هي بفتح الباب درءاً لأي خطر قد يكون في الخارج، ظهرت المسافة بين غرفة المعيشة والبوابة الرئيسية للمنزل، طويلة جداً، تمكنت خلالها سارة من استعراض كافة الاحتمالات الممكنة لهوية الطارق في هذا الوقت من الليل. فتحت الباب بسرعة ولم تستطع أن تتبين من هي تلك المرأة العجوز التي وفدت عليهم آخر الليل، كان ظهرها منحنياً وعلامات التعب والمرض ظاهرة عليها، وعندما ظهر وجه المرأة العجوز في الضوء بشكل واضح، لم تصدق سارة ما تراه، فقد صرخت بكل

قواها واندفعت إلى حضن أمها عليا التي هدها الزمن والإعياء وظهرت التجاعيد الكثيرة في وجهها لتبرهن حجم المعاناة التي تعرضت لها خلال السنوات التي غابت فيها عن القرية. كان أحمد مشدوهاً وفي ذهنه ألف سؤال، من تكون هذه المرأة التي جعلت أمه تندفع إليها بهذا الشكل ولماذا كل هذا البكاء؟ أسئلة كثير لم يتح له معرفتها إلا بعد أن أدخلا المرأة العجوز إلى غرفة المعيشة وجعلوها ترتاح ثم قاما بتغطيتها وجلب كوب ماء لها، بينما كان أحمد يحاول أن يصبر نفسه حتى تخبره أمه ما القصة ومن تكون هذه المرأة. أشارت سارة إلى المرأة العجوز وهي تنظر إلى أحمد قائلة هذه أمي عليا. إنها جدتك يا أحمد، ثم خاطبت أمها بالقول: هذا أحمد ابني يا أمي. إنه ثروتي الوحيدة في هذه الدنيا وهو من عوضني عن كل خساراتي السابقة. لم يكن أحمد يعرف الكثير عن جدته عليا، فقد كانت حكايات أمه عن أبيها أبي راشد صاحب الأثر الكبير في قلبها، لكن سارة أخبرت أحمد بأن جدته غادرت القرية منذ سنوات طويلة عندما مات جده أبو راشد، وانقطعت أخبارها منذ تلك الأيام ولم يعرف أحد عنها شيئاً حتى هذه اللحظة. كان من الواضح أن عليا مرت بظروف عصيبة طيلة السنوات الماضية منعتها من القدوم إلى القرية حتى هذا اليوم. كانت سارة وابنها أحمد ينتظران أن تشرب كوب الماء وترتشف بعضاً من الشاي المغلي مع القرفة، كي تلتقط أنفاسها وتبدأ بإخبارهم عما جرى معها في تلك القرية الغريبة.

تنهدت عليا بعمق ثم غامت عيناها بالدموع، وقالت إن زوجها أبا سليمان كان قاسياً جداً عليها، فلم يسمح لها بمغادرة المنزل حتى لزيارة الأقرباء من أهله، فكيف بزيارة أهلها في القرية. كان شديداً وصعباً عملت على العناية به خاصة بعد أن طعن في السن وأصيب بالعديد من الأمراض، إلى أن توفاه الله منذ فترة قريبة، وتابعت عليا بالقول إنه مات ولم يترك لها شيئاً ترثه، فقد اقتسم أبناؤه من زوجته الأولى كل أملاكه مسبقاً بعقود بيع وشراء مما جعلها بلا ورثة تحميها شر الأيام. أجهشت عليا كثيراً وهي تعتذر من ابنتها سارة على قرارها الخاطىء بالزواج من أبي سليمان ومغادرتها القرية تاركة إياها في مقتبل العمر. بكت عليا بحرقة في تلك الليلة وطلبت من سارة أن تسامحها على فعلتها قائلة أي أم يمكن أن تترك ابنتها من أجل رجل لا يمتلك أخلاق الرجال؟ كانت سارة تستمع وعيونها تدمع بحزن كبير، وكم ودت لو عاتبت أمها وأخبرتها كم سبب لها هذا الرحيل من معاناة لم تبرأ منها حتى اللحظة. لكنها آثرت الصمت ومسامحة أمها قائلة إن ما مضى قد مضى ولا فائدة من إعادة فتحه الآن. كل ذلك حصل وأحمد لا يصدق ما يسمع، لكنه شعر في قرارة نفسه بالفرح لعودة جدته عليا عسى ذلك يكون مبعث سعادة لأمه التي يعتبرها محور حياته كلها. في ذلك الوقت طلب أحمد من أمه ألا تحمل همّ جدته عليا وتكلفة علاجها والعناية بها، فهو سيتولى كل ذلك مادامت أمه سعيدة بلقائها بعد هذا الزمن الطويل.

-12-

منذ أن جاءت جدته عليا لتعيش معهم في البيت، دأب أحمد على تطوير عمله وراح يقضي الساعات الطوال في السوق يتسوق البضاعة ويعقد اتفاقات مع التجار الذين وثقوا به إكراماً لسمعة جده أبي راشد. لم يترك شيئاً إلا وتاجر به، بدءا من المعدات الزراعية إلى المنتجات الغذائية ومستلزمات الصيادين من حبال وشباك وغيرها. فكان يرجع في ساعة متأخرة من الليل ليجد أمه بانتظاره كعادتها، فتضمه وتبتهل إلى الله أن يحميه ويمده بالرزق الوفير. كانت سارة تتمنى عليه ألا يجهد نفسه أكثر من اللازم، وتقول له إن الرزق مقسوم عند رب العباد ولن ينال المرء إلا ما هو مكتوب له، فيخبرها بثقة إنه لابد من أن يسعى الإنسان وراء رزقه ويبذل ما عليه والباقي متروك لله سبحانه وتعالى. كانت سارة فخورة بإيمانه وحكمته، وكلما تحاورت معه ورد عليها بكلمات كهذه مليئة بالحكمة، ابتسمت برضا وقالت إنها لن تستطيع التغلب عليه فهو أبو راشد الصغير.

في إحدى الأمسيات وقبل أن يعود أحمد من عمله الطويل، سألت عليا ابنتها سارة إن كانت قد فكرت بضرورة البحث عن زوجة مناسبة لأحمد، لكن اندهشت من هذه الفكرة لأن أحمد بالنسبة إليها مازال صغيراً، أو ترغب بأن يبقى كذلك وألا يغادرها إلى امرأة أخرى قد

تختطفه منها فتعود وحيدة. كانت تتذكر على الفور ما فعلته فاطمة زوجة حميد معها، ثم تتذكر كل تجارب الزواج الفاشلة التي تركت ندوباً لا تشفى في نفوس المقربين منها وعلى رأسهم أمها التي غدر بها أبو سليمان وحرمها من أهلها ومن حقها في الميراث. وعندما تصر عليا على بحث الموضوع وتبدأ باستعراض أسماء الصبايا الجميلات في القرية، تضطر سارة للانهماك معها في الحديث ريثما يصل أحمد من عمله، رغم أنها لا ترفض تلك الفكرة بشكل نهائي بل جل ما تحلم به هو رؤية أحفادها من ابنها الوحيد لكن اختيار الزوجة المناسبة له لابد أن يتم بهدوء وبعد دراسة مستفيضة وتمحيص شديد.

في تلك الليلة، عاد أحمد إلى المنزل منهكاً من شدة التعب، فاغتسل وتناول طعام العشاء مع أمه وجدته، ثم خلد للراحة في غرفة المعيشة التي كان يحب أن ينام فيها. وكعادته كان يستسلم لوابل من الخيالات قبل أن يغلب عينيه النعاس، فكر أحمد في أمه وجدته وكيف أوصلتهما الحياة إلى ما وصلا إليه، تخيل جده أبا راشد، وعمه أبا سالم، وحاول أن يرسم صورة متكاملة لتلك العائلة التي فرضت احترامها وسمعتها الطيبة على جميع أبناء القرية. قال في نفسه إن سعادة أمه هي أهم شيء في هذا الدنيا، وابتهل إلى الله تعالى أن يمده بالعافية والتوفيق من أجل إسعادها والقيام بكل واجباتها. في تلك الليل غفا أحمد قبل أن ينهي كوب الشاي من شدة التعب. بينما

خلدت سارة وأمها عليا للنوم في غرفة أخرى كعادتهما.

قبل آذان الفجر بقليل، استيقظ أحمد فاغتسل وتوضأ، ثم أدى صلاة الفجر وغادر المنزل باتجاه المزرعة لينجز عمله في تنبيت أشجار النخيل، بينما كانت أمه وجدته عليا تغطان في نوم عميق لم يسمح لهما بالاستيقاظ على صوت البوابة الرئيسية عندما أغلقها ومضى مسرعاً إلى عمله الذي يجب أن ينجزه قبل صعود الشمس إلى كبد السماء. وصل أحمد في الوقت المناسب إلى مزرعته، وبدأ بتجهيز المعدات للصعود إلى أعلى أشجار النخيل التي تحتاج في هذا الوقت من العام إلى عناية خاصة تضمن إنباتها وإثمارها بشكل جيد. كان مشهوراً بجرأته واتقانه لهذا العمل، لكن حكمة رب العالمين شاءت أن ينقطع به الحبل وهو في أعلى النخلة، فسقط على الأرض من تلك المسافة المرتفعة، فكسرت ساقه ويده اليسرى، وراح يتألم بشدة، مما استرعى انتباه أحد المزارعين القريبين منه، فهرع إلى نجدته لكنه لم يستطع تحريكه من مكانه حتى لا يتضرر كثيراً مكان الكسر وكي لا يتألم بسبب الحمل، فنادى عدداً من المزارعين القريبين من أهل القرية الذي تعاونوا على حمله والذهاب به إلى البيت.

كان مشهد أحمد محمولاً بين أيدي أبناء القرية، كافياً لأن تصرخ سارة بأعلى صوتها وتسقط على الأرض مغشياً عليها. لم يتبادر إلى ذهنها

شيء إلا أنها فقدت أحمد إلى الأبد. وبينما ركضت جدته عليا باتجاه سارة كي توقظها وتعتني بها، تابع الرجال مسيرهم إلى داخل المنزل، فوضعوا أحمد على الفراش ثم خرجوا بعد أن اطمأنوا إلى صحة أمه سارة التي استيقظت وهرعت إلى الداخل وهي تنتحب بأعلى صوتها بينما تحاول عليا مع الرجال الآخرين تهدئتها بأن أحمد بخير سوى من كسرين أصيب بهما في ساقه وذراعه مع بعض الرضوض البسيطة.

كانت الكسور التي أصيب بها أحمد من النوع العميق الذي لم تجد أمه أحداً في القرية يستطيع معالجتها بحثت وسألت الكثير من الخبراء في هذا النوع من الإصابات، حتى أتى رجل وأخبرها بأن الشخص الوحيد القادر على معالجة تلك الإصابات يعيش في إحدى القرى المجاورة لكنه رجل مسن لا يمكنه المجيء إلى هنا ولابد من حمل أحمد إليه كي يعالجه هناك. حزمت سارة أمرها وقررت الذهاب بأحمد إلى ذلك الرجل على جناح السرعة، وكانت صرخات أحمد عندما يتألم تصيبها بالهستيريا على فلذة كبدها الذي أهرقت عمرها من أجل سعادته لكنه الآن طريح الفراش ومصاب بإصابات عميقة لا يعرف أحد إن كان سيشفى منها تماماً أم لا.

تبرع علي، أحد أصدقاء أحمد المقربين، بمرافقة صديقه وأمه سارة إلى قرية الرجل المسن الذي سيعالج أحمد، وابتهجت سارة لنخوة

علي وشهامته فهو وابنها أخوة منذ زمن طويل، وعند الصباح الباكر، كان الجميع جاهزين للانطلاق، من أجل أن يبدؤوا رحلة الاستشفاء. في ذلك الوقت حاولت عليا أن ترافق ابنتها وحفيدها إلى الطبيب المعالج، لكن سارة طلبت منها البقاء في البيت والانتباه إلى صحتها والإشراف على المزرعة والدكان معتمدة على أحد شبان القرية مقابل أجر تعطيه له. بدأت القافلة بالتحرك وراحت تنهب الطريق بسرعة بينما كانت الأصوات التي يصدرها أحمد عندما يتألم، تكفي لأن تنهمر الدموع من عيني سارة فتلطم خدها على حظها العاثر الذي أصاب منها مقتلاً في هذه الحادثة التي لم تكن بالحسبان. طيلة الطريق حاول صديق أحمد أن يهدىء من روع سارة مؤكداً أن الإصابة بسيطة ويمكن علاجها عند هذا الرجل الذي ذاع صيته في أرجاء المنطقة نظراً لخبرته الطويلة ومعالجته لأصعب الإصابات، لكن سارة لم تكن تطمئن بهذه الكلمات وهي ترى ابنها مسجى يحاول أن يتمالك نفسه فلا يصدر صوتاً يؤكد أن ما يشعر به من ألم يفوق الاحتمال.

ابتهلت سارة كثيراً إلى الله كي ينقذ ابنها، وكانت تتلو الآيات القرآنية وتردد الدعوات بخشوع بينما الدموع لا تتوقف عن الانهمار وإغراق خديها الشاحبين. ساعات طويلة مرت حتى بانت أطياف القرية من بعيد فسارع علي لإخبار سارة بأنهم قد وصلوا إلى القرية المطلوبة، وعندما بدأوا بعبور الشارع الرئيسي في القرية، بدأ علي يسأل عن

الرجل المسن صاحب الشهرة الواسعة في علاج الكسور الصعبة، حتى تمكن من الوصول إليه بسرعة فائقة، وما إن عاين الرجل المسن كسور أحمد، حتى قال إن فترة العلاج ستأخذ وقتاً طويلاً لأن هذه الكسور العميقة تحتاج عناية خاصة ومراهمَ وأعشاباً وضمادات مع مراقبة مستمرة. فسارعت سارة إلى استئجار منزل في القرية، لتبدأ بعدها مسيرة استشفاء أحمد المؤلمة والصعبة.

-13-

في تلك الفترة، حاولت عليا أن تنجز جميع المهام الموكلة إليها في غياب ابنتها سارة وحفيدها أحمد، فكانت تذهب صباحاً إلى المزرعة لتقوم بخدمة الأشجار والمزروعات، ثم تعود إلى الدكان كي تشرف على عمليات البيع بمساعدة أحد عمال القرية الذي استقدمته مقابل أجر كي يساعدها. فرغم حركتها المتثاقلة ومرضها وشيخوختها، إلا أن عليا شعرت أنها تقوم بنوع من التكفير عن الذنب بعملها هذا الذي أشعرها بأهمية وجودها إلى جانب ابنتها بعد أن خذلتها خلال سنوات طويلة من البعد. كانت تستعرض شريط حياتها ولا تصدق تلك الظروف التي عصفت بها منذ أن مات زوجها أبو راشد إلى اللحظة التي سقط فيها أحمد من أعلى شجرة النخيل إلى الأرض. لم يكن أمامها إلا أن تؤازر ابنتها وحفيدها بالدعاء وهما يمكثان في تلك القرية البعيدة من

أجل الاستشفاء. أحياناً كانت تحدث زوجها أبا راشد، فتخبره أن أبا راشد صغير مصاب وأنهم يبتهلون إلى الله تعالى أن يشفيه بسرعة ويعيده إليهم لأنه الوحيد الذي ملأ مكان جده الراحل. لم تستطع عليا أن تمنع دموعها المنهمرة كالسيل على خدودها المجعدة، فهي الدليل الأخير على الطهارة من الذنب الذي ظلت تشعر به منذ اللحظة التي وافقت فيها على الزواج من أبي سليمان. كانت تشعر وكأنها تُعاقب حتى في شيخوختها، وتتساءل عن الضريبة التي يجب أن تدفعها من أجل الحصول على الغفران الكامل.

أفكار كثيرة راودتها وهي تجلس أمام باب الدكان، ترى ماذا جرى مع سارة وأحمد؟ هل وجدوا الرجل وباشر بالعلاج فوراً، وكم سيتطلب الأمر من وقت، كانت الأسئلة تتصاعد في نفسها دون إجابات ولم يكن لديها من خيار سوى الانتظار. في ذلك اليوم وبينما في لجة آلامها وقلقها على ابنتها وحفيدها، فوجئت برجل غريب يقف أمامها بصمت ويشرع بالتحديق في عينيها كأنه يعرفها منذ زمن بعيد، نظرت عليا بإمعان بوجه الرجل واستغربت صمته ووقفته ثم بادرته بالسؤال من يكون ولماذا يقف صامتاً هكذا؟ كانت تشعر أن هذا الوجه ليس غريباً عنها، لقد خانتها الذاكرة في تلك اللحظة ولم تنجح فراستها في اكتشاف غريمها القديم الذي تسبب بمأساة عائلتها ودمارها بشكل مخيف. كان الرجل الغريب يحدق فيها بصمت ثم يطرق بالأرض دون

أن ينطق بكلمة، وعندما بدأت علامات الغضب تظهر على عليا، أخبرها بأنه إسماعيل، الرجل الذي نصب على زوجها أبي راشد وسرق ماله بعد أن رهن بيته ومزرعته، وتسبب بموته. ما إن سمعت عليا هذا الكلام، حتى شعرت أن قوة غريبة قد زرعت في جسدها، فانتفضت من مكانها ثم انقضت على عنق الرجل بكامل قبضتيها وهي تصرخ: أيها السافل المنحط، لقد دمرت أسرة كاملة بنذالتك وتسببت بموت أبي راشد الذي وثق بك. حاولت عليا بكامل قوتها أن تخنق الرجل وتنال ثأر زوجها وابنتها منه، لكن ذراعيها خاناها رغم استسلام إسماعيل لها، فانهارت تبكي بغضب وهي تشتم إسماعيل وتوجه له الإهانات اللائقة بوضاعته التي لم يشهد العرب مثيلاً لها. أخبرها إسماعيل أنه قدم من أجل الحصول على الصفح والغفران، وقد انهمرت عيناه بالدموع فبدأ ينشج كالأطفال عندما أخبرها بموت أولاده الثلاثة عندما غرق بهم المركب الذي اشتراه بأموال أبي راشد المسروقة، وبعد ذلك ماتت زوجته حزناً على أبنائها، حتى وصل به الحال إلى أسوأ ما يكون بعد أن فقد كل أملاكه وأسرته وأصبح مشرداً يتمنى الموت فلا يجده. تمنى إسماعيل على عليا أن تقتله وتريحه من العذاب الذي يفتك به، فرفعت ذراعيها ونظرها إلى السماء طالبة من الله تعالى أن ينزل قصاصه العادل بهذا الرجل الخبيث الذي لا يملك أية ذرة من الكرامة والأخلاق، فقد تسبب بموت زوجها وتشريد أسرتها وتدمير كل شيء بنوه طيلة حياتهم. رجاها إسماعيل كثيراً أن تسامحه وتغفر له، فقد

عوقب بما يكفي وهو اليوم مجرد كتلة من الأمراض يتمنى الموت فلا يجده. لكنها رفضت وعادت تدعو إلى الله القصاص العادل لأنه وأمثاله من الرجال يشبهون السرطان الذي يتغذى على حياة الآخرين ويسبب لهم الموت، ولهذا لا حل معهم سوى الاستئصال. قالت عليا كل ذلك، ثم أدارت ظهرها ومضت تاركة إسماعيل يغرق بدموعه ويرجوها الصفح والغفران، دون أن ترد عليه.

أيقظ ظهور إسماعيل جميع المواجع عند عليا، فوصلت منهكة إلى المنزل بعد أن أوصت العامل أن يغلق الدكان في آخر النهار كالعادة. كانت مواجهة قاسية بالنسبة إليها، حتى إنها فكرت أن تعود لتجدد محاولتها بخنق إسماعيل والتمتع بمنظره وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة على يديها. كان قلبها ينبض بسرعة وصدرها يعلو ويهبط وهي تحاول التقاط أنفاسها المتقطعة أثناء تناولها الدواء، لوهلةٍ، شعرت أن نهايتها قد اقتربت، لكنها تمالكت نفسها وتمنت على الله أن يمد بعمرها حتى تطمئن على ابنتها سارة وحفيدها أحمد، فهما من تبقى لها في هذا العالم.

-14-

بعد مضي أسبوع من العلاج، هدأت أوجاع أحمد، وطمأن الرجل المسن سارة بأن الأمور تسير على ما يرام. كان الرجل يقضي معظم

اليوم عند أحمد، وقد استخدم كل خبراته في معالجة هذه الحالة النادرة التي لم يصله مثلها منذ زمن بعيد. لقد صنع جبائر من خلطات عجيبة تضم المراهم المصنعة من أندر الأعشاب، وكان يراقب بشكل دائم حركة أصابع اليد والقدم، فيهز برأسه علامة على الرضا نتيجة التحسن الذي بدأ يظهر واضحاً على الكسور. شهر كامل من العلاج، كانت خلاله سارة تصل الليل بالنهار، فتتناوب مع صديقه علي على مراقبة أحمد بشكل دائم، بعد أن خصصت غرفة لكل منهم في البيت المستأجر. عندما بدأت أوضاع أحمد بالتحسن، وتأكدت أمه أن شفاء الكسور بدأ فعلاً، انفرجت أساريرها قليلاً وشعرت بالاطمئنان، خلال تلك الفترة من الانتظار تعرفت إلى العديد من سكان القرية، وكانت تزور الرجل المسن الذي يعالج ابنها كي تسأله عنه وكم يحتاج من الوقت وما هي الخطوة التالية، فيخبرها بأن مرحلة الخطر عدت إن شاء الله وهو ينتظر بعض الوقت حتى يتأكد أن أحمد لم يحتاج سوى بعض الوقت حتى تعود رجله وذراعه إلى العمل بشكل طبيعي. كان من الواضح أن الطبيب يمتلك مهارات كبيرة وسمعة طيبة، فبيته لا يخلو من المرضى المصابين من مختلف المناطق المجاورة، ممن إصاباتهم بالغة وتحتاج إلى مهارات لا يمتلكها كثير من الأطباء. كانت تتعرف إلى المرضى وتحمد الله على نجاة ابنها من هذه المحنة، ثم تعد الأيام التي تبقت حتى يعلمهم الرجل المسن أن بإمكانهم المغادرة بعد التأكد من شفاء أحمد. هناك تعرفت إلى العديد من المرضى من

المناطق المجاورة، كان هناك رجل أتى بابنه الشاب المصاب بكسر بالغ من إحدى القرى، وكان يسألها باهتمام من أي قرية جاءت وما اسم قبيلتها، ثم يبدي اهتمامه بابنها أحمد ويرجو له الشفاء العاجل. في البداية كانت سارة تأخذ هذا الاهتمام بشكل طبيعي يمكن أن يصدر عن أي أب لديه ابن مصاب ويحب أن يطمئن إلى أبناء الآخرين، لكن مع مرور الوقت بدأ اهتمام الرجل يتصاعد وراح يعرض جميع أنواع المساعدة على سارة التي كانت تكتفي بتقديم الشكر له وتخبره بأنها لا تحتاج شيئاً، لكن في داخلها كانت تتوجس من ذلك الاهتمام الكبير خاصة بعد أن بادر إلى زيارة أحمد للاطمئنان عليه في البيت. مرت الأيام ثقيلة على سارة، لكنها أصبحت تشعر بالرضا كلما أكد الطبيب أن أحمد يتماثل للشفاء وإنه يمكنه المغادرة بعد أن يكون قد أتم شهراً كاملاً من العلاج.

ظل القلق يراودها حتى اللحظة الأخيرة التي فك فيها الطبيب المعالج آخر جبيرة ثم طلب من أحمد أن يحرك رجله ويده ويحاول النهوض. لم تصدق سارة أنها سترى ابنها يمشي ثانية بشكل طبيعي، لكن التحسن كان واضحاً في نهاية شهر الاستشفاء، ولم يعد يلزم أن يمكث أحمد في القرية مع أمه وصديقه علي، فلم يبق أمامه سوى الخلود للراحة والقيام بتدريب ذراعه ورجله على الحركة ببطء مع استخدام بعض المقويات وخلطات الأعشاب والمراهم التي أعطاهم إياها الطبيب.

هكذا كان بإمكانهم المغادرة بعد أن اطمأنوا إلى أن الأمور تسير على خير ما يرام. في ذلك الوقت جاء الرجل الغريب والد المصاب الشاب إلى زيارة أحمد والاطمئنان عليه، وطلب من سارة أن ينفرد بها قليلاً، فزاد الحذر من جانبها واستغربت طلب الرجل، لكنها نظراً لحكمتها وثقتها بنفسها، وافقت لتعرف ماذا يريد هذا الرجل المجهول، فشكت في البداية أنه سيطلب يدها للزواج، لكن ذلك أمر مستحيل لأنها على ذمة رجل آخر. لكن وما إن بدأ الرجل بالكلام حتى تكشفت حقيقة الأمر، فقد أخبرها الرجل بأنه شقيق زوجها، وقد عرفها من خلال الاسم والقرية التي تنتمي إليها. لكن سارة لم تصدق ما قاله الرجل، فبادر إلى إخبارها باسم زوجها حميد وزوجته فاطمة واسم القبيلة التي ينتميان إليها ومكان القرية التي يسكنانها، فتأكدت من صدق كلامه، لكنها لم تظهر أي اهتمام بالموضوع ولم تبادر إلى السؤال عن حميد وماذا حل ولماذا تركهم كل هذه السنوات، ولما عرض عليها مبلغاً من المال قال إنه لأحمد من عمه، رفضت بشدة واعتذرت منه لأن الوقت قد حان للمغادرة وكان صوت علي ينده عليها كي يساعدا أحمد على النهوض والسير ببطء نحو العربة بعد أن أنهى جمع الأمتعة.. عندها شكرت سارة الرجل ثم أدارت ظهرها ومشت لينطلق الثلاثة عائدين باتجاه القرية.

طوال الطريق، كانت الدموع تنهمر بغزارة من عيون سارة وهي

تستعرض مسيرة حياتها مع حميد حين جاء هذا الرجل الغريب الذي يقول إنه شقيقه، ليوقظها بعد كل هذه السنوات، وكان أحمد يبدي قلقه من بكاء أمه فيسألها ما الخطب، لكنها تكتفي بطمأنته وتخبره بأنها دموع الفرح بعد نجاته من تلك المحنة الصعبة وعودتهم إلى قريتنا سالمين.

استعادت سارة أثناء الطريق ذكرياتها منذ أن كانت طفلة إلى تلك اللحظة، وكانت تحدق بمعالم المناطق والقرى التي تعبرها ثم تطلق نظرها نحو الجبال البعيدة وتتذكر والدها أبا راشد فتود لو كان على قيد الحياة ليرى كيف جرى لها كل ما كان يخاف منه. لكنها سرعان ما كانت تلتقط أنفاسها وتنظر إلى ابنها أحمد عزاءها الوحيد في هذا العالم وترضى بحكمة رب العالمين على ما قدره لها.

مرت ساعات السفر الطويلة، وبدأت أطلال قريتهم تظهر من بعيد، وكلما اقتربت المسافة، شعرت سارة بالاطمئنان والسكينة تنتشر في أطراف جسدها، رغم مضي فترة طويلة لم تر فيها أمها عليا ولم تعرف ماذا حل بها بعد أن تركتها وحيدة مع مرضها والمسؤوليات الكثيرة الملقاة عليها في البيت والدكان والمزرعة. لكن سارة ظهرت مقتنعة بأنها تجاوزت المحنة الأكبر ولهذا بات أي شيء مهما كان كارثياً، غير قادر على زعزعة اطمئنانها وإيمانها برحمة رب العالمين.

-15-

توقفت العربة عند باب المنزل، وساعدت سارة ابنها على النزول ببطء وهدوء، بينما كان صديقه يحمل الحاجيات إلى داخل البوابة الرئيسية للبيت. انتبهت سارة إلى أن أمها لم تبادر إلى فتح الباب والترحيب بهم والاطمئنان عليهم، فقالت في نفسها ربما كانت في المزرعة أو الدكان تتابع بعض الأمور، وعندما دخل الجميع إلى غرفة المعيشة التي أصر أحمد أن تكون مكان إقامته ريثما يتماثل للشفاء تماماً، ذهبت سارة باتجاه غرفة أمها عليا، فوجدتها طريحة الفراش وقد أعياها المرض، فهرعت تحضر لها بعض مغلي الأعشاب بعد أن غطتها جيداً وأعطتها كوباً من الماء ثم شرعت تخبرها بألا تقلق بعد أن عادت إليها مع ابنها أحمد الذي أنقذه رب العالمين ومهارة ذلك الطبيب المسن من تلك الإصابة البالغة التي تعرض لها.

بعد أن التقطت عليا أنفاسها وشعرت بالتحسن قليلاً، راحت تمطر سارة بالأسئلة حول رحلتها في القرية البعيدة وكيف استطاعت أن تؤمن مستلزمات غيابها كل هذه الفترة، فكانت تخبرها بالتفاصيل وتتحدث عن أخلاق صديق أحمد العالية وتفانيه لمساعدة صديقه، وعن مهارة ذلك الطبيب المسنّ الذي يقصده الناس من كل الاتجاهات بهدف الاستشفاء من الإصابات العميقة والصعبة. كانت عليا تستمع بإصغاء وتمسح

دموعها بين الفينة والأخرى وتحمد الله على لطفه بأحمد وإنقاذه من تلك المحنة الصعبة. كانت ملامح التعب تظهر على وجهها، ولم تنتظر كثيراً حتى أخبرت سارة عن ذلك المجرم إسماعيل كيف أتى لمقابلتها نادماً وطلب أن تسامحه بعد أن غرق أبناؤه الثلاثة مع مركبهم في البحر وماتت أمهم حزناً عليهم، وكيف انقضت عليه بكلتي يديها تريد خنقه وتخليص الناس من شره، بعد أن شتت أسرة كاملة وتسبب بدمارها وموت رب العائلة. وكانت سارة تهدىء من روع أمها وتطلب منها ألا تبذل مجهوداً ولا تنفعل حفاظاً على صحتها، ثم تقول إن رب العالمين لا يترك ظالماً ينجو بفعلته ولا بد أن ساعة الحساب قادمة لا محالة.

بقدر ما كانت سارة تشعر بالسعادة لنجاة ابنها، انتابها القلق بعدما لاحظت تغير ملامح أمها عليا وتراجع صحتها بشكل واضح، فكانت توزع اهتمامها بين أحمد وعليا واستقبال المهنئين لولدها بالسلامة والشفاء، كانت حركة أحمد لاتزال بطيئة وهادئة، وكما أوصاه الطبيب المسنّ، لم يكن يجهد نفسه بانتظار أن يلتحم العظم بشكل جيد ويترمم، لكن عودته سالماً إلى القرية أشاعت نوعاً من السعادة بين أبناء القرية الذين يجمعون على محبته واحترامه ويرون فيه تعويضاً للقرية عن جده أبي راشد وعمه أبي سالم. في تلك المرحلة، امتلكت سارة طاقة هائلة على القيام بجميع مهامها على أكمل وجه، وكان يكفيها أن ترى ابنها يتماثل للشفاء حتى تهون كل مصائب الدنيا في

نظرها. كان ينتابها إحساس خفي بانفراجات تنتظرها في المستقبل، ولم تحلم بشيء سوى سعادة أحمد ورؤية أحفاده وقضاء ما تبقى لها من سنوات في هذه الحياة بأقل قدر من المعاناة، في تلك الفترة لم تتركها ابنة عمها مريم، فكانت المؤنس والسند القوي بجانبها في جميع الملمات، إلى جانب بنات عمها ووالدتهم أم سالم، فهذه العائلة التي مرت عليها جميع نوائب الدهر، جعلتها متراصة مصقولة لا تنفصم عراها، وهي الإرث الذي نجح أبو راشد وأبو سالم في صيانته وبنائه بشكل جيد رغم رحيلهما المبكر. لطالما استعادت سارة مع ابنة عمها مريم، ذكرياتهما الماضية، وجلساتهن في "العريش" يستمعن لقصص رواد المجالس وأشعارهم وآخر الأنباء في القرى المجاورة، وكانت مريم تضحك وهي تخبر سارة أن والدها أبا سالم كان يحبها بشكل كبير يضاهي بناته، فتبتسم سارة وتقول إن عمها كان أبوها الثاني الذي هوّن عليها مشقات الدنيا، وبغيابه تسبب بتعاسة لم تبرأ منها حتى اللحظة. استعادت العائلة علاقاتها الاجتماعية في تلك المرحلة، وكانت أم سالم لا تتأخر عن زيارة سارة مع مريم وتقديم العون والمشورة لها، فجميع أفراد الأسرة شعروا أن سلامة أحمد تخصهم وتعني لهم الأمل والاستقرار والاطمئنان.

مرت الأيام وثقل المرض على عليا وبدأ لهاثها يزداد أثناء التنفس، ولم يعد يريحها نبات الزعتر البري الذي تغليه سارة كل يوم مساء

كي تشربه عليا وتتمكن من النوم والتغلب على موجات السعال الحاد التي كانت تنتابها. في تلك الليلة، قامت عليا باتجاه غرفة المعيشة كي تطمئن على أحمد، فجلست قربه ثم مسحت على شعره وطبعت قبلة على جبينه وراحت تقرأ الآيات القرآنية وتبتهل إلى الله أن يحمي حفيدها ويشفيه ليبقى مصدر سعادة وهناء لأمه التي حان الوقت كي ترتاح من معاناتها الطويلة. ورغم أن أحمد أحس بوجود جدته بقربه، إلا أنه لم يشأ إزعاجها فبقي متظاهراً بالنوم إلى أن ودعته بقبلة أخيرة ثم غادرت الغرفة عائدة إلى فراشها بعد أن ألقت نظرة على ابنتها سارة واطمأنت أنها تغط في نوم عميق.

لم تكن تلك الليلة كبقية الليالي، فقبل صلاة الفجر بقليل، استيقظت سارة واتجهت نحو غرفة المعيشة كي تطمئن على ابنها أحمد فرأته لايزال غارقاً في النوم، فعادت إلى أمها كي توقظها من أجل تأدية الصلاة، لكن عليا على غير عادتها كانت ساكنة شاحبة اللون مغمضة العينين ولا تعاني من أية مصاعب في التنفس، فكان الغطاء فوقها هادئاً مستقراً لا يعلو ويهبط كما هي العادة، هرعت سارة بسرعة نحوها وهي تناديها كي تستيقظ لكن عليا لم تجب، تحسست جبينها ويديها فكان جسدها بارداً جداً وتحت عينيها هالة من السواد، تأكدت سارة أن عليا قد غادرت الدنيا وهدأت روحها بعد سنوات طويلة من العذاب، في ذلك الوقت، لم يكفها ذرف الدموع على فراق أمها، فبدأت بقصائد

الرثاء التي ودعت بها محبيها الراحلين. وكان نحيبها الحزين يصل إلى مسامع أحمد فنهض محاولاً الوصول بحذر إلى غرفة عليا حيث مصدر الصوت. ماتت عليا، ماتت جدتك يا أحمد، قالت سارة لابنها وهو يفتح باب الغرفة ويحدق بعينين جاحظتين حزينتين بجثة جدته الهامدة التي زارته قبل قليل في غرفة المعيشة لتطبع قبلة الوداع على جبينه.

مرت أيام الحداد، وكأن سارة اعتادت على النكبات، لكنها كانت راضية بمشيئة الله تعالى، ومؤمنة بالقضاء والقدر الذي لا مفر منه. لكن ذلك كله لم يمنعها من استرجاع شريط الذكريات القديمة منذ أن كانت طفلة صغيرة تهنأ بين أحضان أمها وأبيها، إلى أن نالت الصفعة الأولى بحياتها حين رحل والدها. قالت في نفسها إن الدهر يجرح ويداوي، ثم نظرت إلى ابنها أحمد الذي لم يبق لها سواه في هذه الدنيا. أحست بضرورة دفن الحزن إلى غير رجعة منذ اليوم، لذلك قررت بشكل قاطع أن تختار زوجة جميلة ذات أخلاق من القرية لابنها أحمد، حتى تشعر بطعم السعادة وتعيش وهي تنتظر ولادة حفيدها الأول.

-16-

مر وقت قليل على وفاة عليا، وبدأ أحمد يستعيد حركته الطبيعية ونشاطه، فبدأ يذهب إلى الدكان والمزرعة، لكنه تجنب الأعمال

المجهدة التي تعرض ذراعه ورجله لتحمل ضغط زائد. كان هناك اتفاق غير معلن بين أحمد وأمه يقضي بتجاوز كل المراحل السابقة والبدء بصفحة جديدة قوامها البحث عن السعادة والحب والتمتع بالحياة بعد كل الألم الذي لحق بهما خلال الفترات السابقة. شعر أحمد أن الأحداث المتلاحقة نحتته بشكل جيد وجعلته أكثر نضوجاً وحكمة، وقد أدركت سارة تلك التقلبات الإيجابية التي توصل إليها بعد أن صقلته التجارب، فكانت سعيدة وهي ترى طفلها الصغير يكبر ويصبح رجلاً يشبه جده في الحضور وقوة الشخصية ومحبة الناس له، لذلك قررت بشكل نهائي أن تفتح موضوع الزواج معه وتسأله إن كان في ذهنه فتاة معينة من القرية أم يفضل أن تختار له واحدة تراها مناسبة، ولم تتفاجأ أن يجيبها بالقول إنه يفضل أن تختار أمه من تراها مناسبة لتنضم إلى العائلة وتصبح أماً لأحفادها تشاركهم السراء والضراء على حد سواء. وبالفعل بدأت سارة بعد أن أخذت علامة الموافقة من ابنها، في عملية البحث عن فتاة مناسبة بهدوء ودقة متناهية لأن أي خطأ في الاختيار قد يكلف العائلة ثمناً باهظاً هم في غنى عنه.

بدأت الأيام تصبح أكثر إيجابية مع العائلة، خاصة بعد أن شرع أحمد بتطوير أعماله من جديد وتوسيعها وقد استفاد كثيراً من سمعته النزيهة في القرية ومن تراث جده أبي راشد الغني بالأعمال الخيرية والمواقف المأثورة التي يحكى بها حتى اليوم. تمكن أحمد من عقد صفقات مع

التجار الكبار الذين كانوا يعطونه البضاعة ويحاسبونه بعد إتمام البيع للزبائن، وكان دائماً على حجم الثقة المنتظرة منه، فلم يتأخر يوماً عن دفع مستحقاته ولم يصبه جشع الربح وظل بعيداً عن استغلال الناس، بل على العكس تماماً شعر بمسؤولياته الكبيرة كرجل وحيد في أسرته الكبرى، فكان يزور بيت عمه أبي سالم ويقدم لهم المساعدة فيما يطلبونه من احتياجات، أما سارة فكانت الملكة الكبرى التي يحتفي بها ويعتبر رضاها أهم شيء في العالم يمكن أن يحصل عليه.

قامت سارة بزيارات كثيرة في القرية وتعرفت إلى العديد من الفتيات المعروفات بأخلاقهن العالية وسمعتهن الطيبة، لم يكن تحديد الفتاة المناسبة أمراً سهلاً بالنسبة إليها، وكثيراً ما احتارت بين عدة فتيات ظهرن متساويات في الميزات التي تبحث عنها عند زوجة أحمد المستقبلية.

في ذلك الصباح، كان صوت أذان الفجر يصل إلى مسامع سارة وابنها أحمد، فنهض الاثنان كي يلحقا تأدية الصلاة في موعدها كالعادة، لم يكن الضوء قد بدأ بالصعود إلى السماء بعد، وكانت النجوم لاتزال متلألئة لكن الظلام بدأ بالانحسار ليترك المجال لتدرجات اللون الأزرق الكحلي الذي يسبق الخيوط الأولى للشمس عادة. أنهى أحمد وسارة صلاتهما ثم جلسا لتناول الفطور واحتساء الشاي بالقرفة. كانت سار تنتظر تلك اللحظة كي

تفتح الموضوع مع أحمد، فشرعت تمهد له عن فتاة تراها مناسبة له في الأخلاق والثقافة والاتزان، كان أحمد يصغي إلى أمه ويبادلها البسمات بين الحين والآخر، أخبرته بأن جد الفتاة كان من الأصدقاء المقربين لجده أبي راشد، وهو رجل معروف بالشهامة والأخلاق العالية، ولم ينتظر أحمد طويلاً حتى أعطى علامة الموافقة لأمه بأن تخطبها له حسب الأصول، فهو سبق وأخبرها بأنه سيتزوج الفتاة التي تختارها له لأن ما يفكر به هو سعادتها ورضاها لأنها أهم شيء في هذا العالم.

تمت مراسم الخطبة خلال أيام، وأعجب أحمد باختيار أمه، ثم حدد موعد الزواج وبدأ أهل القرية بالاستعداد لإقامة هذا الفرح الذي اعتبروه فاتحة خير على القرية كلها. بدأت الطقوس الشعبية لحفلات الزواج بحفل الحناء للعروس، وكانت صبايا القرية ونساؤها يجتمعن وينطلقن جماعات باتجاه بيت العروس وهن يرددن الأغنيات التراثية التي تمجد الحب العذري والاستقرار وبناء الأسرة، في هذه الأثناء كان رجال القرية يتجمعون كل يوم مساء في ساحة القرية وتبدأ أهازيج الرزفة الحربية تتصاعد بينما الشباب يتباهون بقدرتهم على تأدية الرقصات حاملين السيوف العربية ومرددين الأشعار الشعبية مع أصوات التصفيق والتهليل. حرصت سارة على تجهيز العروس بأبهى صورة، فجلبت أغلى أنواع الحناء والبخور والضيافات من الحلويات العربية التي صنعت بعضها في المنزل والباقي اشترته من أفخم الأماكن، كانت

رائحة العطور والبخور تعبق في جميع أنحاء القرية طيلة ثلاثة أيام من الفرح، وكانت نساء القرية منشغلات دائماً بتجهيز الطعام للمعازيم والضيوف الذين وفدوا من القرى المجاورة من أصدقاء أحمد. تلك الحيوية والحماسة وعلامات الفرح التي ظهرت على الجميع، أكدت أن أهالي القرية يحتاجون إلى البدء بمرحلة جديدة من حياتهم بعدما عصفت بهم الأحداث المأساوية طيلة فترة طويلة من الزمن.

بينما القهوة العربية تدور على الرجال، وأصوات الرزفة الحربية تضج في المكان، كان أهالي القرية يستقبلون المهنئين ويدعونهم للمشاركة والجلوس في الأماكن الأمامية، في هذا الوقت، دخل أحد الرجال الغرباء وسط الجموع وسأل القوم لمن يكون هذا العرس، فأجابوه إنه لأحمد ابن سارة. فظهرت علامات الغضب على الرجل وقال أليس له أب حتى يكنى باسم أمه؟ فيخبرونه بأن أباه تركه وهو صغير ولم يعترف به ولم يصرف عليه، بل لم يزره طيلة تلك السنوات التي أصبح فيها أحمد شاباً، وإن أمه سارة هي من تكفل بكل ذلك، فكانت مثالاً في التربية والقدوة الحسنة لابنها الذي يعتبر من وجهاء القرية بفضل تفاني أمه من أجله، فهو أحمد ابن سارة بنت أبي راشد، ولا يعرف أحد شيئاً عن أبيه بل حتى أحمد لا يهتم بمعرفة أبيه الذي تخلى عنه وهو يعتز بأن ينتسب لأمه.

أحس الرجل بالإهانة، فسار بين الجموع يسأل عن أحمد العريس كي

يبارك له، فأشار الناس إلى ذلك الشاب الأسمر طويل القوام الذي يرتدي اللباس العربي الأبيض وله شاربان أسودان، فشقّ طريقه باتجاهه حتى وصل إليه فألقى التحية وسأله هل أنت أحمد بن سارة؟ فأجاب نعم. فقال له الرجل الغريب أنا فلان ابن فلان ومن القبيلة الفلانية. فلم يأبه أحمد لذلك لأنه لم يكن يعرف من يكون أبوه وإلى أي قبيلة ينتمي. أضاف الرجل بغيظ أنت لست أحمد بن سارة، لأنني أنا أبوك، فأنت أحمد بن حميد. فأصيب أحمد بالدهشة وحاول كتم غضبه، فأجاب الرجل بأنه ليس لديه أب، وكيف يكون لدي أب وأنا لم أره في حياتي ولم يسأل عني ولم يشعرني بمشاعر الأبوة؟ حاول حميد أن يقنع أحمد بالعودة معه إلى القرية، وأخبره بأنه يمتلك الكثير المال والأراضي والمحال التجارية، لكن أحمد رفض ذلك وأنشد يقول : "

أحمد واسمي بالعرب دوما مذكور
أمي أعطتني العز نهجه ومساره
كل باسم أبوه ذايع ومشهور
وأنا أفتخر أني أنا ابن سارة

ثم أدار ظهره وتركه وسط الجموع، لم يسر أحمد سوى بضع خطوات، فالتقى بأمه تلبس اللباس التراثي الأخضر وتظهر عليها علامات الفرح والسعادة بزفاف ابنها، فأمسك بيد أمه وأتى بها باتجاه الرجل الغريب الذي يدعي أنه أبوه. حدقت سارة بالرجل مندهشة وقالت له هذا أنت؟

ما الذي جاء بك وماذا تريد منا؟ عندها أيقن أحمد أن كلام الرجل صحيح. فما كان منه إلا أن أعاد الجملة نفسها على مسامع حميد بأنه ليس لديه أب ولا يريد أن يكون. حاول حميد أن يسترضي أحمد ويشرح له عن السعادة التي تنتظره إذا رافقه إلى القرية وتمتع بالأملاك التي جمعها طيلة هذه السنين، لكن أحمد سخر من اعتقاده أن الحياة والسعادة تقاسان بالمال، ثم قال له: إنني أملك أكبر ثروة في هذه الدنيا وهي أمي التي ربتني ولم تتخل عني رغم ما واجهته من صعاب.

في تلك اللحظة شرعت سارة بتذكير حميد بما فعله بها وكيف تخلى عن ابنه من أجل المال ووصفته بالرجل الجبان الخسيس الذي لا عهد له ولا ضمير ولا أخلاق، وقالت له إنه لا يناسبها وابنها الاعتراف بوجوده بأي شكل كان. في النهاية صرخت في وجهه قائلة: اذهب من حيث أتيت.

عندما نطقت سارة بتلك الجملة، حسم أحمد الموضوع وكرر وراءها الكلام نفسه وهو يحدق في وجه هذا الرجل الغريب: اذهب من حيث أتيت. فسارع المجتمعون حول أحمد وسارة يصرخون في وجه هذا الرجل الذي لا يناسبهم استقباله بينهم: اذهب من حيث أتيت.

بعد أن قال أحمد ما في قلبه وشعر أن أمه شفت غلها من حميد،

أدار ظهره للرجل الغريب متجهاً نحو فرقة الرزيف ليشاركهم الرقصة والغناء، بينما وقف حميد في حيرة لا يدري ماذا يفعل، فاضطر إلى مغادرة المكان يجر ذيول الذل والخيبة جزاءً على ما فعله بزوجته وابنه. كان حميد يبتعد عن الجموع ويغادر القرية بخطا متثاقلة، بينما غناء الفرقة الحربية يصدح ويتعالى في المكان.

- النهاية -

السيرة الذاتية
محمد سعيد الضنحاني

البيانات الشخصية:

- مدير الديوان الأميري لصاحب السمو حاكم إمارة الفجيرة.
- من مواليد مدينة دبا الفجيرة عام 1969م.
- يحمل درجة البكالوريوس في العلوم، جامعة دولة الإمارات العربية المتحدة.
- حاصل على شهادة الماجستير في إدارة الاعمال من جامعة أنجيليا راسكين في لندن ، المملكة المتحدة

المسميات الرسمية والعضويات:

- عضو المجلس الإستشاري للمجلس الوطني للإعلام بدولة الإمارات العربية المتحدة.
- عضو مجلس إدارة الهيئة الاتحادية للتنافسية والإحصاء.
- عضو مجلس إدارة برنامج الشيخ زايد للإسكان.
- رئيس شركة الفجيرة للطاقة.
- نائب رئيس شركة الطيف للاستثمار.
- نائب رئيس هيئة الفجيرة للثقافة والإعلام.
- عضو اللجنة العليا لأسبوع الإمارات للابتكار.
- عضو اللجنة الوطنية العليا لعام القراءة.
- عضو مجلس إدارة شركتي الاتحاد للقطارات والاتحاد للقطارات دي بي.
- عضو مجلس إدارة شركة بور بلس كيبل.

- مدير عام شركة الفجيرة للاستثمار.
- مدير عام شركة سنا.
- مدير عام شركة إمداد للنفط والغاز.

الجوائز والشهادات التقديرية:

- جائزة أفضل نص عن مسرحية «يا ليل ما أطولك» في أيام الشارقة المسرحية 2011م.
- جائزتين عن مسرحية «يا ليل ما أطولك» ضمن فعاليات مهرجان قرطاج المسرحي 2001م.
- جائزة أفضل نص عن مسرحية «الحفار» في أيام الشارقة المسرحية 2002م.
- تكريم خاص في مهرجان ليالي المسرح الحر في المملكة الأردنية الهاشمية 2008م.
- شخصية العام المسرحية بالفجيرة 2011م.
- جائزة أفضل مؤلف عن مسرحية «الغافة» في الدورة الرابعة والعشرون لأيام الشارقة المسرحية 2014م.

الإنجازات الثقافية والإعلامية:

- شاعر وكاتب مسرحي ودرامي إماراتي، وباحث في المجال المسرحي والثقافي.
- ترجمت نصوصه المسرحية إلى اللغات الفرنسية والإنجليزية والألمانية.
- غنى من اشعاره عدد من كبار الفنانين الخليجيين والعرب.
- **الأعمال المسرحية:**

قطرة - شراع السموم- اليازرة - يا ليل ما أطولك - الحفار - الليلة الأخيرة - فانوس - الغافة.

- **الأعمال الدرامية التلفزيونية:**

للأسرار خيوط - وديمة - الغافة - ما نتّفق - وش رجّعك - القياضة « جزئين» - أوراق الحب.

- **الدواوين الشعرية النبطية :** صدفة (2011) - همس الحنين (2014).
- كتب قصة وأشعار أوبريت حفل افتتاح الدورة الخامسة لمهرجان الفجيرة الدولي للمونودراما 2012 «العالم يمر من هنا».
- كتب قصة وأشعار أوبريت حفل افتتاح الدورة السادسة لمهرجان الفجيرة الدولي للمونودراما 2014 «لؤلؤة الشرق».

ساهم في تأسيس والإشراف على عدد من الفعاليات الثقافية والإعلامية ومنها:

- مهرجان الفجيرة الدولي للمونودراما.
- ملتقى الفجيرة الإعلامي.
- ملتقى الفجيرة للربابة.
- جائزة الفجيرة للتصوير الفوتوغرافي.
- مركز الهيئة الدولية للمسرح في الفجيرة.
- المسابقة الدولية لنصوص المونودراما بنسختها العربية.
- مسابقة الفجيرة الدولية للتصوير الصحفي (فيبكوم).

محاضر في عدد من الملتقيات والفعاليات الثقافية منها:

- معرض أبوظبي للكتاب.
- ملتقى الفجيرة الإعلامي.
- ملتقى الرواد في مسرح رأس الخيمة الوطني.
- ملتقى الإنتاج الإعلامي الأول لنتاجات الطلبة في جامعة عجمان للعلوم والتكنولوجيا
- ندوة «الإعلام وأثره في الثقافة الصحية».
- ندوة «المشهد الثقافي والإعلامي بالفجيرة» في الكويت.

ابن سارة

عندما نطقت سارة بتلك الجملة، حسم أحمد الموضوع وكرر وراءها الكلام نفسه وهو يحدق في وجه هذا الرجل الغريب: اذهب من حيث أتيت. فسارع المجتمعون حول أحمد وسارة يصرخون في وجه هذا الرجل الذي لا يناسبهم استقباله بينهم: اذهب من حيث أتيت.

بعد أن قال أحمد ما في قلبه وشعر أن أمه شفت غلها من حميد، أدار ظهره للرجل الغريب متجهاً نحو فرقة الرزيف ليشاركهم الرقصة والغناء، بينما وقف حميد في حيرة لا يدري ماذا يفعل، فاضطر إلى مغادرة المكان يجر ذيول الذل والخيبة جزاءً على ما فعله بزوجته وابنه. كان حميد يبتعد عن الجموع ويغادر القرية بخطا متثاقلة، بينما غناء الفرقة الحربية يصدح ويتعالى في المكان.

دار المحيط للنشر
Al Muheet publishing